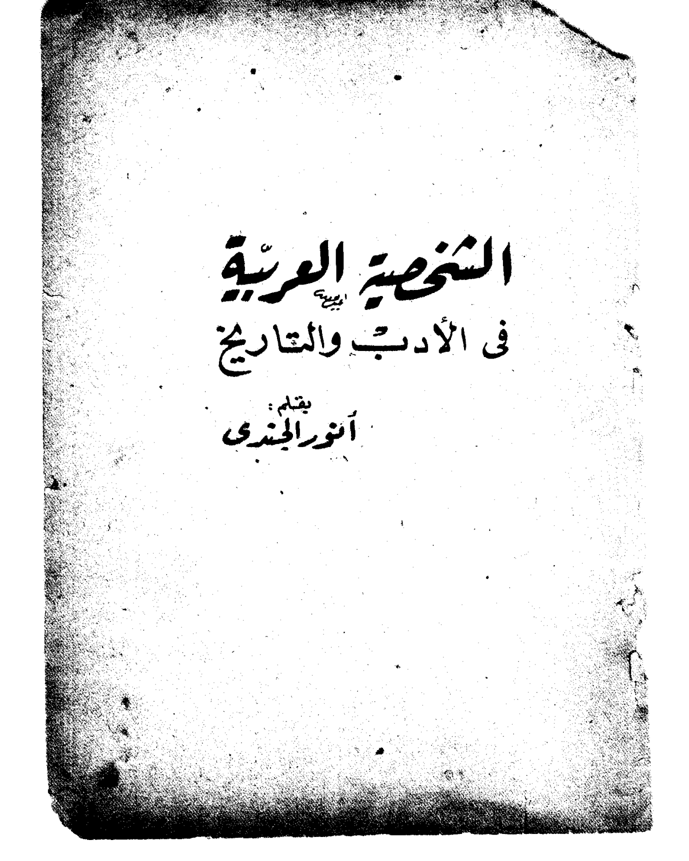
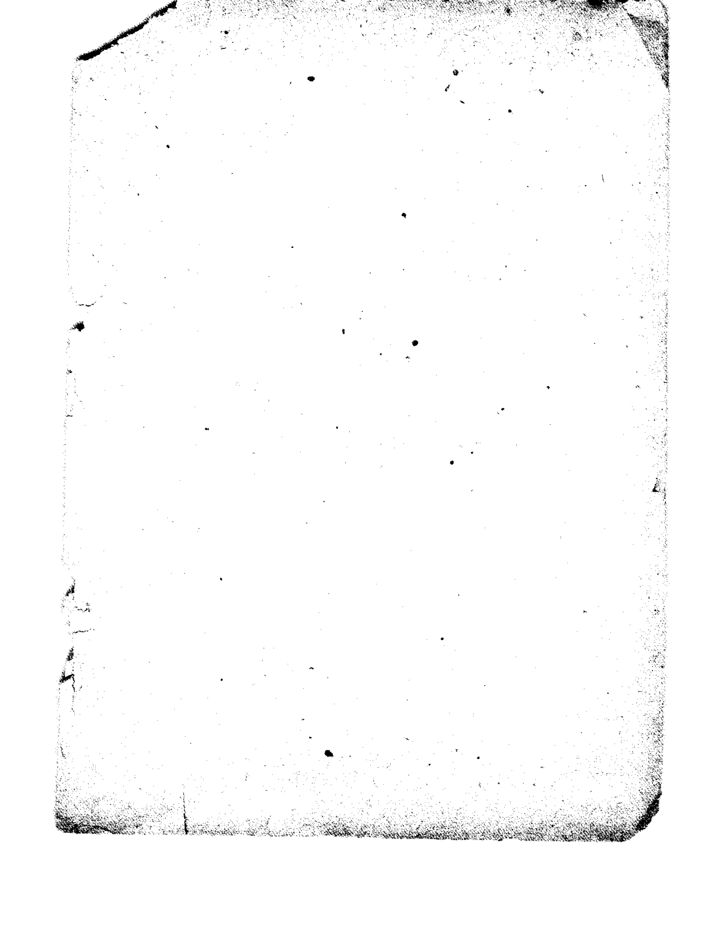


الشخصية العربية
فى الأدب والتاريخ

بقلم:
أنور الجندى



الشخصية العربية

فى الأدب والتاريخ

عاشت « الشخصية العربية » واضحة الملامح خلال تاريخها كله . منذ كان للعرب كيان . هذا الكيان الذى يمتد إلى ما قبل الاسلام حيث كان يتمثل فى الشهامة والاريحية والكرم وحماية الذمار . والوفاء بالوعد . والمناداة إلى النجدة . ونصرة المظلوم .. فلما جاء الاسلام أعطى هذه الملامح قوة ووضوحا ودفعها إلى الاستمرار وأمدها بالحيوية .

وفى خلال هــذا الزمن الطويل ، عبر القرون ، لم تفقد « الشخصية العربية » ملامحها ، وإن أصابها الضعف والذبول آنا بعد آن . كانت لاتلبث أن تستعيد قوتها الجارفة ، عندما يظهر فى أفقها « منقذ » جديد ، يملأ روحها بالاشعاع ويشحن بطارياتها بالكهرباء ويدفعها لـكى تستعيد مافقدته من الارض ، فاذا هى بعد قليل فى مكانها المرموق .

والحقيقة الكبرى التي نريد أن نؤكدها هنا أن شخصيتنا العربية لم تحتمل الذل، إلا بقدر ما كانت تتأهب لدفعه، ولكنها لم ترض عنه يوما، ولم تنحن له أبدا. وأنها حطمت كل قيد في سبيل الحرية، وأنها كانت دائمة الثورة على الظلمة والطغاة، دائمة المقاومة لهم.

ومهما يكن الجهاد في سبيل الحرية والكرامة قد استنفد شطراً كبيرا من جهدنا وإمكانياتنا، فانه جعل الدعوة إلى الحرية طابعاً من أبرز خصائصنا.

ولم تقبل «الشخصية العربية» الانصهار في أية قوة غازية، وظلت ملامحها قوية لاتتأثر، حدث هذا بالرغم مما بذلت هذه الموجات التي توالت عليها في عنف.

لقد قاومت العثمانية والغربية كل مقدراتنا، قاومت اللغة والتراث وحملت عليه في تعصب بالغ، وحاولت أن تجعل لغتها لغة الدواوين والقوانين والمحاكم والمدارس، ولكن ذلك كله تبخر كالهواء وذهب كالزبد، ولم تكن له من نتيجة إلا أنه دفع «الشخصية العربية» في عناد وإصرار لتحافظ على مقوماتها.
وقد عاشت «الشخصية العربية» في ظل العثمانيين أربعة قرون

كاملة لم تتحول قط ملامحها ، ولم تستطع تركيا أن تكرهها على هذا التحول .

والشأن فى هذا شأن الغربية الجامحة ، التى حملت لواء الإلحاد والاباحة والتغريب والاستشراق والتبشير . وحشدت قواتها فى أثواب العلماء والتجار والمدارس والمستشفيات والصحف والكتب . .

وكانت الحملة هذه المرة ضخمة قائمة على أسس نفسية وأساليب علمية ، تحاول أن تنقص من قيمة تاريخنا ، وتغض من حاضرنا ، وتصورنا فى صورة الشعب المحتل الذليل على توالى العصور ، وتنظر إلى مقدراتنا فى سخرية ، وتفند تراثنا فى تشكيك وكانت موجة عاتية نادى فيها دعاة التغريب بالفرعونية فى مصر والاشورية فى العراق والفينيقية فى الشام والبربرية فى المغرب .

ومع ذلك فقد تحطمت الموجة على صخرة « الشخصية العربية » العاتية الجبارة التى عاشت تستقبل مختلف الموجات والتيارات فلا تتأثر بها إلا بقدر ما تريد لتضيف إلى كيانها جديدا ، وقد أتاح لها هذا الطابع الاستقلالى الواضح إذابة هذه المذاهب جميعا

فى بوتقتها دون أن تتحول معالمها الأصيلة .

— ٢ —

وتمر السنوات على « الشخصية العربية » فى ظل حكم الطغاة أو المستبدين أو المستعمرين حتى يخيل للمراقبين لها انها استنامت إلى الذل . ورضيت بالهوان . ثم إذا بها تتجمع بقبضتها القوية ، لتنزل بالعدو ضربة مذهلة . وإذا بالثورة تنفجر فيها قوية عارمة مزلزلة يدهش لها الناس ويعجبون لروح القوة والحيوية الكامنة فى أعماق الشخصية العربية .

وكذلك رفضت «الشخصية العربية» الذل والهوان ، وفرضت نفسها على المستبدين ، وكانت عندما لا تجد وسيلة لتحطيمهم تسخر منهم . وتنظر اليهم فى استهانة واستخفاف . فهى لم تقبل حكم الطغاة يوماً واحدا فى رضى ، ولم تدن بالولاء لأى بيت من بيوت الاستبداد التى صنعها الاستعمار على طول « الكورنيش العربى » من طنجة إلى الاسكندرونة .

كانت تراهم غرباء ، وكانت تراهم طغاة ، فنفرت منهم ، ولم يستطيعوا أن يكسبوا مودتها .



ولقد كنا دائما من صنع أنفسنا . ليس لمؤثر خارجى فضل علينا . كنا ثمرة طبيعية لمجموعة من المقومات العزيزة الكريمة . نعطى للعطاء المجرد ، فلا نطالب جزاء لقاء ما نعطيه . نخاصم القوى فى عنفوانه ، ونعفو عنه عندما يسقط ، فينا الشهامة التى تدفعنا إلى مناصرة الضعيف على الدوام ، شهامة مستمدة من الشجاعة على مجابهة القوى والغاصب . وفينا تراحم . وفينا ترابط بالأهل والأرض . وقد حفظ هذا شخصيتنا من التلاشى فى غيرها ، رغم الجهود التى بذلت لصهرها ، وتوالى عهود الطغيان عليها . .

وكان كرمنا العربى الأصيل جزءاً لا يتجزأ من صميم خلقنا العتيد. وكانت قدريتنا الخالدة تقينا من اليأس وتملأ قلوبنا بالرضا.

وظلت شخصيتنا العربية طوال حياتها تتقبل الأفكار والنظريات والتيارات الجديدة ثم تصيغ منها ما يتفق مع كيانها فتحوله إلى طبيعتها . وهى فى هذا تخلق وتصنع . ولا تستسلم قط . كانت تغربل كل جديد وتذيبه فى أعماقها وتظل مع ذلك قوية . لم يتغير لونها ولا طابعها ولا روحها تحت تأثير الجديد الوافد . كانت دائما تغربل وتفحص وتنقد فى يقظة . لم تكن متعصبة بالصورة التى ترفض الجديد . ولم تكن متساهلة بالصورة التى تجعلها تتلاشى فى مذاهب الدنيا وأفكارها .

ولقد أهدت شخصيتنا العربية إلى العالم « الحضارة » أمسكت بالخيط الأول منه فى أكثر من مكان من أرضها . فى مصر والشام وبين النهرين . فقد قامت فى هـذه الأرض حضارة بابل واشور والفينقيين والفراعنة . ثم امتدت منها أضواء الحضارة إلى العالم . ثم عادت إليها من بعـد مرة أخرى لتحميها من ظلمات القرون الوسطى وبربرية الوندال فى قلب أوربا المعتمة المظلمة ، ثم زادت فى هذه الحضارة واضفت عليها جديداً . . ثم ردتها إلى العالم مرة أخرى . . قال شبنجلر « إن الحضارة العربيـــة شملت البابليين والاشوريين والفينقيين والآراميين واليهودية والمسيحية . وقد بلغت كمالها وتبلورت بظهور الإسلام وتأسيس الدولة العربية .

— ٣ —

تختلف شخصيتنا العربيـة عن غيرنا حتى لتكاد تتعارض معارضة تامة . عندنا القناعة والرضا والإمتلاك بالحق لا نحب اذلال غيرنا ولا امتهانه وإذا تنافسنا فى ميادين الشرف بحيث لا نعدو الاعتدال . وليس لدينا مركب النقص الذى يدفعنا إلى شعور العظمة الجوفاء ، ولا روح الغرور . وليس لدينا التعصب الذى ينفى الحق ، وكنا دائماً لا ننظر إلى الناس على أنهم أقل

منا . بل لقد كنا نرى الناس سواسية لا يتفاضلون إلا بالعمل . وإذا قدرنا عفونا ، ولسنا نندفع إلى العدوان والغدر ولا نطمع فيما في يد الغير . ولا نبدأ بالعدوان ولكن إذا واجهنا العدوان تلقيناه بعدوان مثله وانتصرنا لحقنا . وأدبنا الباغي علينا .

لقد قاومت « شخصيتنا العربية » فى فترات الضعف التى كانت تفرض عليها ، فقد كان الطغيان يصنع الذل والجوع يقتل الكرامة والإستبداد يعلم الخوف ، والاستغلال يفقد العمل الشريف معناه . ولكننا لم نستسلم طويلا ، كانت هناك هبات ضخمة ، عبر الاجيال ، تنفض غبار السنين . وفى خلال القرون الطويلة . كانت أجيال شعبنا تكافح وتناضل . وكان الشهداء يسقطون على الأرض وبجوارهم أعلامهم مضرجين بالدماء ، ولكن لا يستسلمون أبداً ، كانت المعارك لا تنقطع بين مد وجزر ، وتقدم وتأخر ، ولكن قوى المقاومة فيها ظلت تخفق وتنبض . كانت الجموع تحشد ولا يستطيع البارود أن يخنق تقدمها ، أو يخفت صيحة الحرية تنطلق من صدورها ، ولقد كان الاستعمار عامل يقظة لشخصيتنا العربية ، دفعها إلى الكشف عن حقيقة جوهرها الذى أختفى زمنا تحت ركام الأحداث فتنادت إلى الوحدة والقوة .

لقد كان العدوان يدفعنا دائما إلى التنادى والتجمع ، أن كريات « الوحدة » قائمة فى أعماقنا وفى ضمائر شعوبنا . وهى فى وقت الخطر تتجمع وتلتق وتنسى كل شىء . كانت شخصيتنا العربية تعلم أن أى جهد للوحدة والعمل والبناء لا يتم إلا فى حماية جيش قوى ولذلك كنا عند ما نعمل فى ظل جيش قوى ننجح ونعود سيرتنا الأولى فى القوة والمنعة .

— ٤ —

وحاول المستعمرون أن يقتلوا فى الشخصية العربية روح المقاومة فلم يستطيعوا مطلقاً . عجزت كل المحاولات النفسية والسياسية القائمة على العنف والاغراء كما عجزت كل المحاولات فى تفسيخ الصورة أو سحق وحدتها . كانت كل محاولاتهم تنطوى ولا تترك أثراً . ولقد عاشت الشخصية العربية وستبقى متحررة من جميع المذاهب الأجنبية سواء أكانت هذه المبادىء الماركسية أو الفاشية أو العنصرية أو الاستعمارية أو الالحادية والتى تصادف إن كانت جميعها مبادىء نمت أصولها فى أوربا .

وأجبرت الشخصية العربية بجبروتها وحيويتها الأمراء على أن يشركوها فى حكم بلادها ، فقد وقع الأمراء فى أواخر القرن

الثامن عشر وثيقة بناء على رغبة الشعب قالوا فيها : إن الأمراء تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه الناس .

وقال عمر مكرم أحد الذين تتمثل منهم الشخصية العربية للوالى التركى عندما عزله الشعب عام ١٨٠٥ « إن للشعوب طبقاً لما جرى العرف به ولما تقضى به أحكام الشريعة الإسلامية الحق فى أن يقيموا الولاة . ولهم أن يعزلوهم إذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم لأن الحكام الظالمين خارجون عن الشريعة ، كما حاول عرابى عزل الحاكم الظالم ، كما عزله جمال عبد الناصر فعلا .

وعرفت الشخصية العربية حقوق الإنسان قبل أوربا . وكانت رحمة للعالمين عندما انبثت فى الأرض ، فضيقت حدود الرق وأعطت المرأة حق الحياة ، وأعلت حرية العقيدة وحملت لواء حركة الفكر فى القول أو الرفض بالاقناع والدليل .

وحفظت شخصيتنا العربية الحضارة الإسلامية من الفناء والضياع وردت خصوم الحضارة من التتار والصليبيين ، لقد حافظت شخصيتنا العربية على تراث اليونان وزادت فيه .

وفى « عين جالوت » هزمنا التتار ولأول مرة ينهزم التتار فى معركة خلال أربعين قرناً . وفى « حطين » هزمنا الصليبيين لأول مرة . هزمنا تلك الجحافل وجعلناها تقاسى مرارة الهزيمة ، إنها شخصيتنا التى دمرت قـــلاع الموت وأذلت رقاب الانجليز والفرنسيين فى عهد ريتشارد ولويس وأسرت ملكهم لويس وقتلت بجرمهم ارناط . . وسجلت العار على الغادرين فى معارك دمياط والمنصورة ورشيد وبيت المقدس .

إنها شخصيتنا العربية التى حمت الحضارة كلها من الدمار .

وأظهرت الشخصية العربية أبطالا قاوموا الظلم وحطموا صروحه . وكان الشعب بطل المعركة دائماً . وقد عرفنا بهبات التحرر بعد الاستعباد والاعتزاز بالكرامة ، دون قبول الضيم ، والصمود وقت المحنة وكانت بلادنا الساحل القوى الذى ترتطم على أطرافه الموجات والتيارات .

— ٥ —

كان موقع الشخصية العربيـــة فريداً ، فى ملتقى البحار والقارات ، فكانت لؤلؤة العالم الإسلامى ، ومنار الشرق ،

عاشت لا شرقية ولا غربية.. لقد التقت شخصيتنا العربية بالهكسوس والصليبيين والتتار والفرس والانجليز والفرنسيين وقاتلتهم جميعاً بجلد وشهامة وثبات حتى دحرتهم .

وعرفت شخصيتنا العربية الرد على الضربة بضربة أضخم منها ، والعين بالعين والسن بالسن . ولم تعرف شخصيتنا العربية الضيم كما لم تعرف أن تتلقى الأوامر من أحد من الغاصبين .

ولقد كان أبرز ملامح شخصيتنا العربية فى ابان قوتها ووضوحها مخاطبة العقل بدلا من العاطفة . والشعور بأننا سادة لا عبيد . والاعتماد على المبادىء لا الأشخاص . واليقظة التى لا تنخدع ، فلما ضعفت شخصيتنا استبد بنا التواكل أمداً طويلا . وجنحنا إلى العبودية حتى ظهرت أثار السياط على ظهورنا . وأوجد الاستعمار فينا طغاة ومستكينين ومستسلمين و ،كنا نخدع للمظاهر ويبهر أنفسنا البريق الخاطف ، ويستأثر بلبنا الحجم الضخم ، والصوت الجهير دون أن تعرف جوهره .

ولكننا مع ذلك كنا لا نصل أبداً إلى الحضيض . كنا نفقد

توازننا فى فترات الضعف ولكننا لا نقع على الارض ، وكنا نواجه التيارات والظروف والمحن ، ولكننا لا نستسلم لهذه التيارات لتجرفنا ، وصمدنا للزلزال العنيف مرات ومرات .

• ومن ملامح شخصيتنا هذه المنطقة التى نعيش فيها بين آسيا وأوربا وأفريقيا .. منطقة موحدة متشابهة من ناحية المناخ والسواحل والخصب . فيها منابع الثروات ، وهى مقصد كل قوة غالبة ، الرومان والفرس والاتراك وأوربا وأمريكا .

ولقد كانت منطقتنا « مسرح الشخصية العربية » وحدة قديمة ممتدة طويلة الأجل من قبل الحضارات؛ وحدة جغرافية وتاريخية فيها تقارب التفكير وتشابه أسلوب الحياة . والتقاء فى الآمال والاخلاق ، كان لنا طابعنا الخاص فى الحضارة والحياة والبناء والرى والسياسة . ثم جاءت الاديان فأعطتنا هذا الطابع الروحى النقى الذى لا يوغل فى الجمود ولا يسرف فى المادية ، ويوازن بين العقل والعاطفة . وكان لشخصيتنا العربية أثرها فى الحضارات المصرية والاشورية والبابلية التى وضعت الاسس للحضارة العالمية .

ولقد علمتنا الأديان القواعد التى يقوم عليها التعاون بين

البشر فلم نكن فى حاجة إلى مبادىء مستوردة .

ولقد عاش الايمان فى العرب يمنح ويدفع . ومضى القلق فى الغرب يدمر ويحطم . ولم يكن عند العرب كهنوتية ولا وساطة بينهم وبين الخالق كتلك التى يعرفها الغرب .

ولقد كانت شخصيتنا العربية تعرف موقفها من الشرق والغرب دائماً . لم تكن تعادى من أجل مصالح أحد لم تكن تهاجم، ولكنها كانت تدفع عن الرقعة إلى آخر طاقة وآخر رجل . ولقد كانت الكلمة الطيبة عندنا - ولا تزال - أكبر من أى مبلغ من المال .

كان خصومنا يقولون لنا فى ساعة الضعف : أن الأمل الوحيد لكى نكون أقوياء أن نسير فى ركاب الأقوياء ولكن « الشخصية العربية » كانت ترفض هذا الرأى ، لأنها كانت تؤمن بأنها تملك من أسباب القوة ما يجعلها قوية بذاتها .

ولقد ثبت للعالم كله بأكثر من دليل أن « العربى » لا يقل قدره فى ركوب الاخطار وقهر العقبات والتحليق فى الافاق والغوص إلى الاعماق عن غيره من الجنس البشرى الذى يدل أحيانا بنفسه ويتعالى .

ومن ابرز معالم شخصيتنا العربية : الاخلاص والايمان بالله واجتماع الرأى والارادة . والسخاء فى البذل والتضحية . وما من امه ابدت من التسامح والتساهل والحرية ، كما فعلنا ، وما من امة تحررت من الجمود والقيود كما تحررنا .

ومن ابرز ملامح « شخصيتنا العربية » : شدة الحساسية وصفاء النفس والاصرار على الموقف الصحيح فهى لا تقبل فى مجال الوطن مساومة ولا تسامحا ولا انصاف الحلول . لا تهزها نشوة النصر ولا يستخفها غرور الفوز . ولا تحطمها مرارة الهزيمة فتدفعها إلى اليأس . تراها دائما على استعداد لخوض المعركة من بدايتها إلى نهايتها . تؤمن بالنصر وسط الظلام الحالك . وتسيطر على أعصابها فى أشد الاوقات قسوة ، تحس بالخطر الذى يهددها وهو فى طريقه إليها ، ومن ابرز ملامح شخصيتنا اننا لا نترك ثأرنا أبداً مهما تقادم عليه الزمن ونرد اللطمة التى توجه إلينا بلطمة أقوى منها .

ولقد كانت « الشخصية العربية » واضحة فى أنها تجمع ولا تفرق . وتحمى ولا تهدد . وتصون ولا تبدد . وتقوى ولا تضعف . وتوحد ولا تفرق . وتسالم ولا تفرط . دون ان

تتعصب أو تتحزب ودون أن تنحرف او تنحاز .

وعرفت شخصيتنا العربية ان الأمة الحية لا تتهاون بعد ساعة النصر أو تتراخى ، انها فى ذروة شعورها بالقوة تدرك ان النصر الذى حققته انما هو مرحلة على الطريق وليس هو بحال من الأحوال . خاتمة المطاف .

ولعل ابرز ملامح شخصيتنا العربية فى مراحل اليقظة والتجمع هو «الأمل» كانت توقظنا الأحداث فإذا بالنبض يعود إلى قلوبنا . وإذا بنا نتجه إلى الايجابية الحية ، ونصبح فى سباق مع الزمن ، فنعوض مافات . ونحقق فى سنوات قليلة مافاتنا فى سنوات كثيرة وفى هذه المرحلة يكون علينا ان نبنى لنعوض الماضى ولنواجه الحاضر ولنلحق بالمستقبل . لقد كان يتعين علينا أحيانا ان نسبق الزمن .

— ٦ —

ولم تستسلم «الشخصية العربية» أبداً أو حاربت فى سبيل المحافظة على كيانها . حاربت كل من حاول بسط سلطانه عليها . ولم تلبث أن طوته فى بوتقتها . فعلت ذلك مع الفرس والاغريق

والروم والاتراك والفرنسيين . فعلت ذلك مع دارا وقيصر والاسكندر ونابليون . وحاربت الاتراك فى خمس معارك ضخمة ولم تنهزم إلا بالخيانة . وفنى الفرس كما فنى الهكسوس والليبيون والاشوريون فى « الشخصية العربية » .

وفى الوقت الذى ارتبطت فيه منطقتنا العربية بالفرس والروم والترك مئات السنين حالت قوتها الذاتية دون ذوبانها وبقيت لها لغتها وملامحها كاملة . وبذلك تجلت مناعتها وقدرتها على إذابة الشعوب فيها وافنائها فى بوتقتها .

وحاولت شخصيتنا العربية الخلود فاقامت المساجد والمعابد والكنائس . ودعت إلى التوحيد . وجمعت أهرام مصر إلى قصور تدمر ، إلى سد مأرب ، وعرفنا المسلة فى المعبد والبرج فى الكنيسة والمئذنة فى المسجد .

وكانت دعوتنا إلى التوحيد باكرة قبل الأديان ، فلما جاءت كانت المعانى الروحية توازن المعالم المادية وتحول بينها وبين التميع من ناحية والتجمد من ناحية أخرى .

ولقد أريد للشخصية العربية ان تنحرف بالنزعة الروحية إلى

الصوفية المتجردة عن المادة أو العصبية المستبدة بالعاطفة مما يتعارض مع التفكير العقلى ، ولكنها استطاعت ان تعمد للمقاومة وتحتفظ بمعالم نزعتها الروحية بعيدة عن الانحراف .

انها خصائص أصيلة فى أمتنا . ملامح صادقة فى شخصيتنا قد حجبتها فى بعض فترات التاريخ بعض الأغراض الطارئة ثم لم تلبث ان تعود وضاءه مشرقه حتى ليقول لدثمون فرخياس « إن هؤلاء الذين ذهبوا إلى بلاد العرب هالهم مارأوا من ثبات العرب وهدوءهم أمام تلك الخطوب والكوارث التى تودى بحياة الملايين .. »

ولقد كان للشخصية العربية دائما حصيلة ضخمة من الايمان بالمثل العليا والتاريخ الطويل الحافل بالامجاد ومعالم القوة فى المقاومة الدائمة .

ولم تتلوث الشخصية العربية بمدنية الأتراك ولا بمدنية أوربا . ولم نفقد شخصيتنا وسط تيارات المدنيات المختلفة الوافدة من الخارج .

وخلاصة القول ان أبرز ما تتميز به الشخصية العربية

اليوم معالم أربع : القدرة على مقاومة التميع فى التيارات الوافدة ، والحذر من كل ما هو غربى من الأفكار والآراء والمذاهب ، فقد كان الاستعمار دائما يقـــدم لها السم فى صورة من الصور البراقة الحلوة . واليقظة الدائمة حتى لا تقع فريسة لعدوان جديد ، وفيه ذلك التحفز لمواجهة اللطمة التى توجه إليها من العدو بلطمة أشد وأقوى .

فى مرحلة القيادة

فى مرحلة القيادة

ليس هذا تاريخاً . ولا هو بالبحث العلمى وإنما هو حديث قوامه الايمان بشخصيتنا العربية والثقة بأننا قد صنعنا الحضارة قديما فى مصر ، ثم تلقفناها من اليونان والرومان لحفظناها وزدناها ، وكنا فى خلال قرون طويلة وفى هذه المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط قادة الفكر وسادة العالم ومعلمى الشعوب وماتزال أمجادنا حية نابضة بالقوة كالمنار تهدى وترشد . وترسم للعالم صورة الكرامة والرجولة والايثار والوفاء والبعد عن الدنايا والترفع عن الذل والحقد والغدر .

واليوم ونحن نستعيد مجدنا ونأخذ مكاننا ونتجمع فى سبيل مستقبل ضخم نرى أن الدور دورنا لنصنع الحضارة الجديدة التى يترقبها العالم، الحضارة التى طالما تطلع إليها أصحاب المدنية الفاضلة ، الحضارة التى تقوم على الشرف والكرامة والمساواة ونصرة المظلوم وتأييد حق الضعيف .

إننا نحن وحدنا الذين نستطيع أن نقدم الضياء للانسانية فى هذه الجولة بعد أن كاد يعميها الجشع والظلم والطغيان والحرب .

في ميدان الحرب

نحن العرب الذين قال رجلنا : « أحب من الرجل إذا سيم الخسف أن يقـــول « لا » بملء فيه . نحن الذين قال عنا خصومنا : « رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحيـــاة . والتواضع أحب من الرفعة : أميرهم كواحد منهم . لا يعرف رفيعهم من وضيعهم . ولا السيد من العبد . وإذا حضرت الصلاة فلا يتخلف عنها أحد . يغسلون أطرافهم ويخشعون في صلاتهم . »

نحن الذين فتحنا الدنيا فلم نفرض على الناس شيئاً . ولم نستكره أحداً . وأبحنا حرية العقيدة . وحمينا البيع والكنائس والمعابد .

نحن الذين ترك قائدنا «خالد» لأهل المدن المفتوحة إدارتها . نحن الذين سمع قائدنا من يقول : ما أكثر الروم وأقل العرب . فغضب وصاح « بل ما أقل الروم وأكثر العرب . إنما يكثر الجنود بالنصر . وتقل بالخذلان .

نحن الذين قال أبو بكر لقائد من قوادنا « إذا قدمت على جندك فاحسن صحبتهم . وأبدهم بالخير وعدهم أياه . وإذا وعظتهم فأوجزفان كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً . وإذا قدم عليك رسل عدوك فاكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من معسكرك وهم جاهلون به وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولى لكلامهم واسهر بالليل مع أصحابك تأتيك الأخبار وتنكشف عنك الأستار وأصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس .

نحن الذين عندما طلب قائدنا من الخليفة إرسال مدد إليه . أرسل إليه أربعة رجال وقال له : « لقد أمددتك بأربعة آلاف . فيها أربعة رجال الواحد منهم بألف رجل وهم : الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت . مسلمة بن مخلد . والمقداد بن الأسود . »

•

نحن العرب الذين رسمنا لقادة الحرب أعظم صورة من صور البطولة فى ذلك الخطاب الذى وجهه أبو بكر إلى عمرو ابن العاص :

« قد وليتك هذا الجيش فانصرف إلى أهل فلسطين وكاتب أبا عبيدة وانجده إذا أرادك ولا تقطع أمراً إلا بمشورته .

اتق الله فى سرك وعلانيتك واستحيه فى صلواتك . فانه يراك فى عملك وأرد بعملك وجه الله ، وأياك والوهن . وإياك أن تقول رمانى ابن قحامة فى نحر العدو ولا طاقة لى به . واعلم ياعمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر فاكرمهم واعرف حقهم ولا تداخلك نخوة الشيطان فتقول : انما ولانى أبو بكر لانى خيرهم . وإياك وخدائع النفس وكن كأحدهم وشاورهم فيما تريد من أمرك . والصلاة ثم الصلاة . أذن بها إذا حل وقتها واحذر من عدوك . ومر أصحابك بالحرص . وكن أنت بعد ذلك مطلعاً عليهم أطل الجلوس بالليل إلى أصحابك . وأقم بينهم . واتق الله إذا لاقيت العدو . وقدم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك . وإذا وعدت فأوجز . وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك . وإذا رأيت عدوك فأصبر ولا تتأخر وألزم أصحابك قراءة القرآن وأعرض عن زهرة الدنيا » .

•

« نحن العرب » الذين علمنا الدنيا الفروسية التى كانت شروطها التقوى والشجاعة والقوة والفصاحة والمهارة فى ركوب الخيل والسيف والرمح والقوس . والتى كانت من أقوى مانقله الصليبيون من العرب .

نحن الذين فككنا الحصار عن قلعة أزبكا بعد أن وجدنا أن التى تدافع عنها امرأة . نحن الذين كنا كراما عندما أسرنا لويس التاسع فى المنصورة ووضعناه فى دار القاضى فخر الدين ابراهيم بن لقمان فأمناه وفككنا أسره هو وزملائه دون أن يصيبهم أذى .

نحن الذين هزمنا الصليبيين فى موقعة « حطين » . والتتار فى « عين جالوت » .

نحن الذين كان قائدنا صلاح الدين وفيا كريما بملوك أوروبا بعد هزيمتهم فأعفى العجزة والفقراء والشيوخ من دفع الفدية وتسامح مع النساء وأرسل الطبيب لعدوه رتشرد قلب الأسد . وسمح للبطريق أن يخرج سالما - وهو عدوه - ومعه تحفه وكنوزه دون أن يتعرض له أحد .

نحن الذين حرقنا مراكبنا بعد أن عبرنا حدود الأندلس بقيادة طارق وعبرنا جبال البرنية بقيادة موسى بن نصير .

نحن الذين حاصر قائدنا بسر بن ارطأة بأسطوله القسطنطينية ثلاث سنوات متواليات .

نحن العرب كنا سادة البحر فى القرن الثالث الهجرى فغزونا بمعاوية جزيرة قبرص . ثم غزونا صقلية ورودس واقريطش وسردانيه وجزائر البليار .

نحن الذين قبضنا على ناصية المياه الجنوبية والوسطى فى ذلك البحر الشاسع الذى كان يتوسط العالم القديم .

نحن الذين غزونا روما مدينة القياصرة مرتين ، وغزا بحارنا المسلم « غلام زرافه » ثغور الدولة البيزنطية . واقتحم « مجاهد العامرى » وأبو القاسم الشيعى عاصمة الروم .

نحن الذين استعملنا النار اليونانية فى حصارنا للشواطىء الايطالية وجزائر البحر الابيض وفى معارك الصليبيين وفى معارك دمياط . فادهشنا خصومنا وزلزلنا قواعدهم .

نحن الذين بنينا الأساطيل الضخمة واتخذنا من ثغور أفريقيا دوراً للصناعة البحرية لبناء السفن المختلفة .

نحن الذين بسطنا سلطاننا على صقلية والمقاطعات الجنوبية من إيطاليا وجبال الالب وجنوب فرنسا فترة لاتقل عن قرنين حيث حفرنا اسمنا بحروف من نار فى كل مكان هناك . وجعلنا إيطاليا مركزا من مراكز الثقافة العربية .

نحن الذين أدخلنا إلى فرنسا وإيطاليا أكثر الاصطلاحات البحرية فى ألقاب ضباطها وتعابيرها الحربية واستعمال بارود المدافع والقنابل والحراقات والقذائف واصطلاحات الصيد وعلم الفلك وأسماء الكواكب .

نحن الذين تركنا فى أسبانيا آثاراً للفروسية والحرب والشهامة .

نحن الذين قابل رجالنا « يزدجرد » امبراطور الفرس يحملون له دعوتهم فقال لهم : لاشىء لكم عندى . ثم أمر بوقر من تراب وقال : احملوه على أشرف هؤلاء . ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن . وصرخ فيهم قائلا : ارجعوا إلى صاحبكم فاعلموه انى مرسل إليه « رستم » حتى يدفنه ويدفنكم معه فى خندق القادسية .

واهتز عاصم بن عمرو فرحا . وتقدم من الامبراطور . وحمل التراب على عاتقه وهو يقول : « أنا أشرفهم . أنا سيد هؤلاء . » وسار يحمل التراب . وركب راحلته وانطلق مع أصحابه ودخلوا على « سعد بن أبى وقاص » وهو فى حصن فدك . وقال له عاصم : أبشر فقد والله أعطانا الله أرضهم .

وقيل أن يزدجر تطير بعد ذلك وغضب وقال : إن الذين خرجوا من المدائن بترابها إنما خرجوا معهم بأرض فارس . وقد كان .

نحن العرب الذين عرفت صفوفنا أمثال البراء بن مالك . عندما تحصن مسيلمة بالحديقة فى « غزوة اليمامة » وفكر العرب فى محاصرتها بحثا عن ثغرة تتيح لهم فتح بابها الضخم . وظل البراء زائغ البصر حتى وجد مكانا فطلب إلى اخوانه أن يحملوه ويلقوه عليهم فى الحديقة . فقال الناس لا تفعل يابراء .. ولكنه أصر على قوله . فرفعه المحاربون إلى أعلى الجدار . ولم يطل تردده إذ ألقى بنفسه على بنى حنيفة أمام باب الحديقة . وظل يضرب بسيفه يمنة ويسرة حتى فتح بابا للمحاربين فدخلوا منه زمراً يقتلون فى عنف ويسحقون خصومهم سحقا ..

ومنا خالد بن الوليد « الذى أريد له أن يذهب إلى الشام فاختار الطريق الاشق . والتمس رافع بن عميرة الطائى دليلا له . فلما جاءه قال له : إنك يا خالد لن تطيق ذلك بالخيل والانقال : « والله أن الراكب المنفرد يخشى فيها على نفسه . أنها خمس ليال لايصاب فيها ماء ..

فقال له خالد : لا بد من ذلك فمر بأمرك قال : استكثروا إذن من الماء فمن استطاع منكم أن يصر أذن ناقته على ماء فليفعل فإنها المهالك إلا مادفع الله .

وطلب إلى خالد أن يجيئوه بأبل سمان . فلما جاءوه بها عمد إليها فظمأها حتى إذا بلغ بها العطش مبلغه أوردها الماء عللا بعد نهل. فلما امتلأت صر أذنها وشد مشافرها لئلا تجتر. وانطلق خالد بالجيش يتقـــدمه رافع . وأمضوا خمسة أيام يسيرون فى وحشة الصحراء . وينزلون كل يوم فيأكل الرجال ويشربون مما معهم من المـاء .ثم يشقون بطون عدد من هذه الإبل التى أتخذوها خزانات ويخرجون الماء منها ويسقونه الخيل حتى بلغوا آمنين .

ومنا « سعد بن أبى وقاص » الذى وصل مع رجاله إلى شاطىء دجله فوقف على شاطئه ينظر وينظرون إلى تدافع مياهه يفكرون فى وسيلة لعبوره وهم يرون على مد البصر « المدائن » فى عظمتها وقصر كسرى فى بهائه . وانتهى به الرأى إلى أن يعبر مع رجاله على خيولهم . وتقدم عاصم بن عمر ومعه ستمائة من أهل النجدة فساروا حتى بلغوا شاطىء دجله . يريدون أن يعبروا أولا

ليحموا الفراض من الجانب الآخر . فلما وجد بعض رجاله يترددون . تلا قوله تعالى « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا » ثم رفع رأسه فاقتحم النهر واقتحمه زملاؤه .
فلما رأى القعقاع بن عمرو الكتيبة الأولى تتقدم فى سبحها . ونظر فإذا بفرس على الجانب الآخر . من النهر يتاهبون لردها ، أمر سائر أصحابه السنابلة فدفعوا خيولهم إلى النهر فدخلوه كما دخله عاصم وأصحابه . وتولى الفرس العجب لهذا الصنيع . فلما رأوا عاصما وأصحابه ، يتوسطون النهر أرسلوا فرسانهم ليمنعوهم من الخروج . وليقاتلوهم فى الماء ، ورأى عاصم هذا فقال لأصحابه : الرماح الرماح . اشرعوها وتوخوا العيون . وارتدت خيول الفرس حين أصابت الرماح عيونها . وخرج عاصم ومعه كتيبة الأهوال سالمين . . ورأى سعد قوة أصحابه فاندفعوا جميعاً ألوفاً مؤلفة . وساروا فى النهر كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى ملأوا ما بين الجانبين ، فلا يرى وجه الماء من الفرسان ، وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما كانوا يتحدثون على وجه الأرض . . .

أما عاصم فقد أمر أصحـاب الزوارق والسفن من الفرس فدفعوها ، فجعلت تنقل من العرب من لم يعبر على جواده . ولم

يفقد العرب رجلا واحداً . وخرجت خيول العرب من الماء تنفض أعرافها صاهلة . .

ودخل العرب القصر الابيض « قصر كسرى » وأقاموا به . واتخذوا الايوان مكانا لمقامهم . ووجد سعد فى خزائن كسرى ثلاثة آلاف الف الف الف دينار . ثلاث مرات أى تسعة ملايين دينار . ووجد بالقصر من التحف والأمتعة مالا تعرف قيمته .

ووجد تاج كسرى مرصعاً بالدر والجوهر . وجىء له بسفطين فى أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثغره ولباته الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة ولجامه كذلك . وفرس من فضة مكلل بالجواهر ، وناقة من فضة عليها غطاء من ذهب .

ومنا « أبو محجن الثقفى » الذى قيده سعد فى معركة « القادسية » وتركه فى خيمته . وكان من فرسان العرب . فلما اشتد القتال وتردد تكبير الناس فى أذنيه صعد يجر أغلاله يطلب إلى سعد أن يدفع به فى المعركة ، ولكن سعدا رده ، فذهب إلى زوجة سعد « سلمى » يطلب إليها أن تحل قيده وأن تعيره « البلقاء » فرس سعد . واقسم إن عاش بعد المعركة أن يرجع فيضع رجليه فى القيد .

فلما نزل إلى المعركة كانت ميمنه العرب قد انحرفت فاذا بسعد يجد فارساً عملاقا يندفع فيضرب فى صرامة وعزمة فيدهش ويقول لنفسه : أن الضرب ضرب أبو محجن والفرس هى البلقاء وكيف يتأتى هذا وأبو محجن والفرس مقيدان . فلما تم النصر وكان لأبى محجن فيه أكبر الفضل عاد كما أقسم فقيد نفسه . . عندئذ عرف سعد أن زوجه قد أطلقته فدعا به وأراد أن يكرمه فقال : لله على ألا اقيدك فى شرب الخمر أبداً . فقال أبو محجن ولله على إلا أشربها أبدا فقد كنت أشربها حتى لا يقول العرب إنى تركتها خوفا من إقامة الحد .

ومنا « عمر بن الخطاب » كان يصاحب المحاربين بروحه . ويعيش معهم وهو فى المدينة يتسقط أنباءهم . ولا يذوق النوم إلا لماما . ساهراً ليله يسأل ويدعو ، فلما كانت موقعة « نهاوند » التى أطلق عليها « فتح الفتوح » خرج مبكراً يلتمس الأنباء ، وقد توقع أن يصل من يحمل له الخبر ، وقد صدق حدسه ، فقد لقى طريف بن سهم يحث خطا دابته إلى المدينة ، فاستوقفه وسأله . فذكر له ما انعم الله به على العرب فعاد معه حيث أعلن النبأ ولكنه لم يلبث أن خرج مرة أخرى يريد أن يقف على تفاصيل

جديدة ، ومضى هو وجماعة من أصحابه يمعن فى الطريق الذى يؤدى إلى فارس . فاذا بهم يلقون السائب بن الاقرع فسأله عمر عما وراءه ؟ فقال البشرى والفتح ، قال عمر : ماذا فعل النعمان ؟ قال : زلت فرسه فى دماء القوم فاستشهد . قال عمر ، إنا لله ولم يتمالك أن بكى . ثم أخذ يسأل عن غيره فذكر له أعيان القوم وأشرافهم ثم قال « وآخرون من أفنـــاء الناس لا يعرفهم أمير المؤمنين » قال عمر : ماضرهم ألا يعرفهم عمر . لكن الله يعرفهم وقد أكرمهم بالشهادة .

ومنا أهل المغرب الذين قاموا بأعمال الفتح الخاطف ومطاردة سفن الأعداء وردوا على قرصنة إيطاليا وفرنسا وأسبانيا بأن أنزلوا بالموانى الأوربية الأذى جزاءاً وفاقاً ..

فى ميدان الفكر العلم

« نحن العرب » الذين كان لنا فى ميدان الفكر والعلم والبحث دور خطير . هذا الدور الذى صوره جوستاف لوبون بقوله « كلما أمعنا فى دراسة حضارة العرب وكتبهم العلمية واختراعاتهم ظهرت لنا حقائق جديدة . وآفاق واسعة . وسرعان ما رأينا أن العرب هم أصحاب الفضل فى معرفة القرون الوسطى لعلوم الاقدمين . وأن جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون مورداً علميا سوى مؤلفاتهم . وأنهم هم الذين مدنوا أوربا مادة وعقلا واخلاقاً . وأن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه فى وقت قصير ؛ وأنه لم يفقهم قوم فى الإبداع الفنى . وتأثير العرب عظيم فى الغرب ـ وهو فى الشرق أشد قوة ـ ولم يتفق لأمة ما اتفق للعرب من النفوذ . والأمم التى كانت لها السيادة كالآشوريين والفرس والمصريين والاغريق والرومان قد توارت ولم تترك لنا غير أطلال دارسة . وعادات أديانها ولغاتها وفنونها ذكريات .

والعرب وإن تواروا عن مسرح السياسة فترة ، إلا أن

عناصر حضارتهم ظلت قوية مؤثرة. كما بقيت روحيتهم ولغتهم وفنونهم حية. ببقاء أكثر من مليون شخص مقيمين فيما بين المحيط الاطلسى وقلب الهند».

«نحن العـــرب» الذين أكد المؤرخون أنه لو لم نظهر على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا الحديثة عدة قرون.

منا «واصل بن عطاء» رأس المعتزلة. وأبو ذر الغفارى رأس الاشتراكيين ومعاذ بن جبل أستاذ مكة فى الفقه. وزيد بن ثابت أمير المدينة فى العلم، وعبد الله بن مسعود رئيس الكوفة فى الفكر. و«ابن عربى» فيلسوف وحدة الوجود. والثورى وأبو حنيفة والحسن البصرى ومالك والشافعى وابن حنبل.

منا الاوزاعى عالم أهل الشام الذى أفتى فى سبعين الف مسألة. منا «ابن جرير الطبرى» الذى وضع أول تاريخ كامل فى اللغة العربية عاش بين عامى (٧٣٨-٩٢٣) مفكراً حرا نزيها جبار الذهن، يعد كتابه من أهم مصادر التاريخ العربى.

منا «الجاحظ» النابغة العالم الذى كان يؤجر المكتبات فيعيش فيها الايام والاسابيع حتى يقرأها، ويستوعبها. والذى

مات بسقوط الكتب عليه . وكان من عادته أن يصفها كالحائط محيطة به وهو جالس فى داخلها .

منا « البيرونى » أول من عرف الهند بأنها شبه جزيرة . وأول من قال إن قمم العالم هى التبت فى « آسيا » والبيرنيه والألب فى أوروبا . والذى كشف كتابه تاريخ الأمم عن دراسات فى الفلك والسلالات عدت كنزا ضخما فى الفلسفة والعلوم .

منا « أبو الفداء » الذى قال إن الأرض كروية تطفو فى مركز الوجود وقال « لو أن رجلين ابتدآ السير واتجه أحدهما شرقاً والآخر غربا فأنهما يتقابلان »

ولكن الرجل الذى يتجه شرقاً يصل إلى مكان اللقاء قبل الآخر بيوم .

منا « الكندى » أعظم أطباء الاسلام . والذى كتب مالا يقل عن ٢٠ مؤلفاً فى الطب . وقد وصل إلى حد البراعة فى علم الجرعات على أسس حسابية . منا « أبو بكر محمد بن زكريا الرازى » الذى كانت شهرته تضارع شهرة « رازس » وقد زادت مؤلفاته فى الطب على المائتين . أهمها « الهادى » الذى أحاط بجميع ما وصل اليه اليونان والسريان والعرب الأوائل ، وقد اشتهر بأنه أول

من كتب بتوسع فى أمراض الأطفال ، وشخص أمراض المثانة وكان من أعظم الاخصائيين فى علم الولادة . وفى علاج أمراض المجارى البولية بالحقن . حتى قال الدكتور روبنسون . إن الرازى كان يعالج الأمراض التناسلية كما نعالجها فى أيامنا هذه . وإليه ينسب اختراع الفتيلة فى الجراحة .

منا أبو القاسم الزهراوى : أعظم جراح عرف فى العصور الوسطى . وإليه يرجع الفضل فى معرفة مايقرب من مائة آلة ومبضع وقد ظلت طريقته هى المتبعة فى أوربا الوسطى إلى مدى خمسمائة عام . وكان عالما فى طب الأسنان وهو أول من كتب إحصائية صحيحة لأمراض النزيف الدموى .

ومنا « على بن عيسى » صاحب أكبر مؤلف عرف فى ذلك الوقت . وهو تذكرة الجاهلية فى طب العيون تناول فيها طبيعة العين وكيفية تشريحها ، كما تناول بالشرح ٣٠ مرضا من أمراض العيون ووصف ١٣٠ دواء كان يستعملها فى علاج هذه الأمراض

ومنا « ابن سينا » الذى يعد بمفرده دائرة معارف والذى كتب فى الفلسفة والطبيعيات وعلم الفلك والطب مالا يقل عن عن مائة وستة وخمسين مؤلفا .

وقال « جورج سارتون » عنه إن مؤلفاته ظلت الأصل والمرجع للآداب والفنون إلى أجيال جديدة بعد موته . وكتابه « القانون فى الطب » هو المرجع الوحيد لجامعات أوربا خلال القرن السابع عشر . وقد تضمن مايزيد على مليون كلمة .

ومنا «المسعودى» الذى أمضى ربع قرن فى الطواف بالمملكة الاسلامية الواسعة . ومنا « ابن بطوطة » وابن حوقل وأبا الحسن والناصر سليمان وكلهم من الرجال الذين كتبوا مجلدات ضخمة عن مشاهداتهم .

ومنا « الخوارزمى » الذى وضع جداوله الفلكية المعروفة استنادا إلى كتاب الفزارى الذى ترجم رسالة الفلك الهندية لجمع ما بلغه اليونان والهنود فى هذا العلم وزاد عليه أمورا جديدة .

ومنا « سنان بن ثابت بن قره » الطبيب الذى كان يمتحن الأطباء . ويعطى الاجازات الطبية لمن توفرت فيهم الأهلية . وقد اجتاز الامتحان على يديه ما نيف على ستمائة وستين .

منا « على بن حزم » الذى نسب إليه ابن خلطان والقفطى أربعمائة مجلد فى التاريخ والدين والحديث والمنطق .

وقد تلاقت مساجدنا وكنائسنا فى رسالة الروح التى عرف بها العرب قادة للعالم ، كما تلاقت أرواحنا فى ساحة الاستشهاد ، فقد

كنا صفا واحداً مسلمين ومسيحيين فى كل معركة قتال قاومنا بها العدو المغير ، وكانت لنا بطولات على حد سواء . وكان « محمد » مجداً للعرب جميعاً كما كان عيسى ، وكان التراث العربى مشتركا موحداً ساهم فيه المسيحيون فى بيت الحكمة فى بغداد ، ومدرسه الرها ، وبرع منهم فى ترجمة الكتب حنين بن اسحق الذى ترجم للمنصور بعض كتب ابقراط وجالينوس فى الطب وأقليدس فى الهندسة .

وكانت مساجدنا مراكز هامة للحركة العلمية . ففى مساجد البصرة ودمشق وبغداد والقاهرة كانت تقام حلقات الأدب والجدل والشعر .

وكان مسجد بن طولون فى القاهرة ، وبيت المقدس فى القدس والمسجد الأمــوى فى دمشق ، والزيتونة فى تونس مراكز ثقافية هامة .

وفى خلال النهضة العربية وأبانها زادت حركة النقل والترجمة من اليونانية والفارسية . وكان ليحى بن خالد مجلس يجتمع فيه أهل الكلام . وشجع المأمون الترجمة واستقدم من القسطنطينية المصنفات الفريدة فى الفلسفة والهندسة والطب والموسيقى . وفى

اصبهان والرى أقام الصاحب بن عباد والفتح بن العميد مراكز ثقافية ذات أهمية كبرى . وكانت وفود الأدباء تقصد إلى بلاد الحدانيين فى الموصل ثم فى حلب حاضرة سيف الدولة ، وتعقد حلبات الشعر والفكر .

وفى مصر العربية كان الأزهر ولا يزال . وزخرت القاهرة بالعلماء والمتحدثين والمتصوفة والأدباء والشعراء والمؤرخين : أمثال القاضى بكا بن قتبة ، وأبا القيض ذا النون المصرى ،والربيع ابن سليمان . وابن عبد الحكم صاحب فتوح مصر والمغرب والأندلس .

وقيل إن فى خزانة الكتب الفاطمية أربعين قسما كل قسم يشتمل على ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة . وبلغ عدد الكتب بالخزانة نحوا من مليون وستمائة ألف تتناول الفقه والنحو واللغة والتاريخ وسير الملوك . وعلم النجوم والالهيات والكيمياء ودخل ورق الكتابة إلى بلادنا فى أواسط القرن الثامن من الصين عن طريق سمرقند . وقبل ختام ذلك القرن شاهدت بغداد أول معمل للورق ثم تلته تدريجياً معامل أخرى .

وظهر أول معمل للورق فى مصر عام ٩٠٠ م ، وفى مراكش

عام ۱۱۰۰ م وكان ذلك قبل أن يصل الورق إلى أوروبا بثلاثة قرون ، فلما وصل إليها كانت أسبانيا العربية هى التى حملته مع علومها وفنونها .

وكانت سوق « عكاظ » تقام فى شهر ذى القعدة من كل عام على مسافة قريبة من مكة فيجتمع فيها الحجيج ، وهم فى حمى الأشهر الحرم ، فيتصاولون ويتساجلون ويتعارضون بالرأى والشعر .

وكان الشعراء أمثال النابغة والأعشى . والخطباء أمثال عمرو بن كلثوم وقيس بن زهير . والكهان أمثال قيس بن ساعده وأميه بن الصلت ينتظمون فى حلقات مشهورة فيها المدح والفخر والوعظ . وينصرف الرواة إلى بلادهم وقد سمعوا الأخبار والقصص وعرفوا الجديد من أنباء الفكر والأدب .

أما المكاتب .. فقد روى أن مكتبة القاهرة كانت تشتمل فى القرن الحادى عشر الميلادى على كرتين فلكيتين . وكان فى كل مسجد مكتبة لأنه كان من عادة العلماء أن يقفوا كتبهم على المساجد ويقال أن خزانة الكتب فى (مرن) كانت تحوى كتب يزد جرد لأنه حملها إليها وتركها . وكان الملوك يفاخرون بجمع الكتب حتى لكان لكل حاكم عربى ولع شديد بالكتب وكان الحكم

صاحب الأندلس يبعث رجالا إلى جميع بلاد المشرق ليشتروا الكتب عند أول ظهورها . وكان فهرست مكتبته يتألف من أربعة وأربعين كراسة .

أما فى مصر فكانت للخليفة العزيز خزانة كتب كبيرة . وقد ذكر ان عنده كتاب «العين» للخليل بن أحمد فأمر خزان دفاتره، فأخرجوا من خزائنه نيفا وثلاثين نسخة بخط الخليل بن أحمد وحمل إليه رجل نسخة من تاريخ الطبرى فاشتراها بمائة دينار .

وقال « المقريزى » أن خزانته كان بها ألف وستمائة كتاب . ولما يمض على تأسيس بغداد ثلاثة أرباع قرن حتى أصبح فى حوزة العرب أهم كتب أرسطو الفلسفية ونخبة من كتب الشروح لأهل الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، ومعظم كتب جالينوس العلمية وطائفة من الكتب العلمية فارسية وهندية .

وكانت « قرطبة » أكثر المدن الاسبانية حضارة . وكانت مثار اعجاب العالم، وكان الرحالة الأوربيون يعجبون بهذه المدينة التى تحوى سبعين داراً للكتب وتسعمائة حمام للجمهور . وكان يقصدها امراء ليون ونافار وبرشلونه حين يحتاجون إلى جراح أو مهندس أو مطرب كبير .

وتأتى طليطلة بعد قرطبة فى مراكز الثقافة .

وفى سامان كانت مكتبة نوح بن نصر عديمة المثل . فيها كل فن من الكتب المشهورة بأيدى الناس وغيرها مما لا يوجد فى سواها ولا سمع باسمه فضلا عن معرفته .

ومن أسبانيا العربية انتقلت الحضارة إلى أوربا . ومن صقلية العربية انتقلت الحضارة إلى ايطاليا حيث انبثقت فيما بعد النهضة الايطالية .

وعاش الشريف الادريسى فى صقلية وهو أعظم الجغرافيين القدماء على الاطلاق فى بلاط روجر . والف كتابه (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) .

وكان فردريك الثانى حاكم صقلية يجتمع بالعلماء العرب من دمشق وبغداد وأنشأ أول وأكبر جامعة فى أوربا هى جامعة نابولى (١٢٢٤ م) وزودها بمكتبة عربية درس فيها ارسطو بشروح الفيلسوف العربى ابن رشد .

وترجم روبرت تشتر كتاب الخوارزمى فى الجبر وهو أول من ترجم القرآن إلى اللاتينية . كما ترجم ميخائيل سكوت التراث اليونانى عن العربية .

وترجم حنين بن اسحق (٨٠٩ - ٨٧٣) كتب جالينوس وابقراط .وكتاب السياسة لافلاطون ، والمقولات والطبيعيات لارسطو . وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب .

ولكن ماذا كان مصير هذه الثروة الضخمة من الكتب العربية ؟ .

لما أغار هولاكو التترى على بغداد عام (٦٥٦) أمر بالقاء كتب العلم التى كانت فى خزائنها فى نهر دجله . كما أمر أن تبنى بجزء من الكتب اسطبلات للخيل ومزاود بالورق بدلا من الآجر والطين .

ولما فتح الفرنج طرابلس الشام فى الحروب الصليبية احرقوا دار كتبها بأمر قائدهم الكونت برتران دى ما تجيل .

واحرق الفرنسيون كل الكتب المطبوعة والمخطوطة التى وجدوها بمكتبات قسطنطينية عندما فتحوا الجزائر .

أما الكردينال كنيسى مطران طليطلة فقد أمر بجمع جميع الكتب والاثار العربية فى غرناطه وتنظيمها اكداسا فى ساحات المدينة واحتفل باحراقها كعمل من أعمال التعصب .

ويقدر بعض المؤرخين هذه المخطوطات باكثر من مليون مجلد وشبت النار فى الاسكوريال فى أواسط القرن السابع عشر فحرقت عدة آلاف التهمتها النيران . ولم يبق من هذا الكنز الفريد سوى الفى مجلد . .

وحرق ٦٠٠ الف مجلد أيام غارات البربر .

وقد بلغ من ثروتنا هذه ثلاثين الف كتاب ، فى حين أن بعض المؤلفين بلغت تصانيفهم بضع مئات . فقد كتب الكندى واحداً وثلاثين ومائتين . والرازى مائتين . وابن حزم اربعمائة . والقاضى الفاضل مائة . وعبد الله بن حبيب عالم الاندلس الفا .

وذكر جيبون فى كتابه عن الدولة الرومانية انه كان فى طرابلس على عهد الفاطميين مكتبة تحوى ثلاثة ملايين مجلد احرقها الفرنجة عام ٥٠٢ ه

ووجد فى مكتبة الاوسكوريال قواميس عربية يونانية وأخرى عربية لاتينية .

ونحن العرب ، الذين حولنا أسبانيا ماديا وثقافيا فى بضعة

قرون لجعلناها على رأس جميع الممالك الاوربية. ولم يقتصر تحويل العرب لاسبانيا على ذلك بشهادة المؤرخين الاوربين انفسهم. كان لنا الأثر الواضح فى تعليم الناس « التسامح » الذى هو أثمن ما تصبو إليه الانسانية :

وعلى حد قول « سيديو » عن جامعة بغداد وان أهم ما اتصفت به منذ البداءة هو روحها العالية الصحيحة التى كانت سائدة فى استخراج المجهول من المعلوم. والعلل من المعلولات ومن عدم التسليم بما لا يقوم على التجربة والترصد ، وقد كنا فى القرن التاسع الميلادى حائزين لهذا المنهج المجدى الذى اقتبسه علماء أوربا بعد زمن طويل فكان عاملا فى اكتشافاتهم المعروفة.

وقد سجل المؤرخون الاوربيون أن العرب كانوا أساتذة الأمم الاوربية عدة قرون وانهم لم يطلعوا على علوم قدماء اليونان والرومان الا بفضل العرب وان جامعاتهم لم تستغن عن تدريس ما نقل إلى لغاتهم من مؤلفاتنا إلا منذ سنوات.

واجمع المؤرخون على أن حضارتنا دامت بعد زوال سلطاننا السياسى. وان ميلنا الشديد إلى الفنون والاداب والعلوم ، قد

جعلنا نضرب بسهم وافر في المباحث الرياضية والفلكية والطبيعية والكيماوية والطبية .

« نحن العرب » الذين أقمنا في القرن التاسع الميلادي أول إرصاد منظم استخدمت فيه آلات دقيقة الصنع . وكان ذلك في (جندسابرر) وفي (دمشق) و (بغداد) وقد جهزت تلك المراصد بالآت فيها مقياس الارتفاع والاسطرلاب والساعة الشمسية .

كما اننا عرفنا علم الكيمياء وأدخلنا التجربة الموضوعية . ويعد جابر بن حيان الذي ظهر في الكوفة عام ١٧٦ ابو الكيمياء العربية وقد نقل جابر عدداً غير قليل من كتبه إلى اللغة اللاتينية . كما نقل كتابه « الاستتمام » إلى اللغة الفرنسية عام ١٦٧٢ مما يدل على قوة نفوذه العلمي في أوربا أمداً طويلا

وتؤلف كتب « جابر بن حيان » موسوعة علمية تحوى خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء في عصره . وقد عرف جابر خواص بعض الارواح .

واشتملت كتبه على بيان كثير من المركبات الكيماوية التي

كانت مجهولة قبلة كالحامض النترى وماء الذهب والبوتاس وروح النشادر

وهل نستطيع أن ننسى «أبو القاسم القرطبي» المتوفى سنة ١١٠٧ وهو اشهر جراحي العرب، والذى اخترع كثيرا من آلات الجراحة ورسمها فى كثير من كتبه . وقد وصف عملية سحق الحصاه فى المثانه واخراجها التى عدت ظلما - كما يقول جوستاف لوبون - من اختراعات العصر الحاضر . والذى قال عنه «هالر» العالم الطبيعى الكبير ان كتبه كانت المصدر العام الذى استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر .

«نحن العرب» الذين أدخلنا العلوم الى اوربا عن طريق اسبانيا وصقليه وايطاليا ففى سنة ١١٣٠ أنشىء فى طليطلة مكتب للترجمة . فصار هذا المكتب ينقل إلى اللغة اللاتينية اهم كتب العرب . وترجمت مؤلفات علمائنا كالرازى وأبى القاسم وابن سيناء وابن رشد . كما نقلت كتب علماء اليونان من مترجماتها العربية ككتب جالينوس وابقراط وافلاطون وارسطو واقليدس وارخميدس وبطليموس .

«نحن العرب» الذين كان لنا على حد قول - لوبون - استعداداً

ذهنيا خاصا مكننا من دراسة أمور العالم الذى كان جديداً في أعيننا بمثل ذلك الاستعداد الذى فتحناه به . ولا دعه يمل عبارته : « . . ولم يتقيد العرب فى دراسة تلك الحضارة التى واجهتهم فجأة بمثل التقاليد التى اثقلت كاهل البيزنطيين منذ زمن طويل ، وقد كانت الحرية من أسباب تقدمهم السريع . ولم يلبث ان تجلى استقلال العرب الفكرى وخيالهم وقوة ابداعهم فيما ابتكروه . وقد رأينا انه لم يمض سوى وقت قصير حتى طبعوا على فن العمارة وسائر الفنون من مباحثهم العلمية وطابعهم الخاص الذى يبدو لأول وهله من آثارهم . . فلقد ابدع العرب من فورهم ، بعد ان استعانوا بحضارة اليونان وحضارة الرومان وحضارة الفرس حضارة افضل من تلك الحضارات التى جاءت قبلها . .

فى ميدان الحضارة

ونحن العرب، كانت قصورنا حديث الدنيا : الزهراء والحمراء وسر من رأى ومسجد قرطبة وقصور الناصر فى الأندلس والعزيز بالله فى القاهرة . وبنى بوية فى الرصافة . وبنى حمدان فى حلب . وبنى عباد فى اشبيليه . ومعاوية فى دمشق . والمأمون فى بغداد .

فالزهراء بناها الناصر فى أربعين عاما . يتوسطها قصر الزهراء الذى يزينه ٤ آلاف عمود من المرمر ، كانت من روميه وافريقيا وتونس . وبعضها أهداه صاحب القسطنطينية وفيها الرخام الابيض والأخضر الوردى والمجزع . وكانت رداهه مبلطة بقطع من الرخام المنقوش بمهارة على ألف شكل . وكانت حواجز هذه الردهة مغطاة بالمرمر ومزخرفة بالافاريز ذات الألوان الباهرة . وكانت جسور هذه السقف وترابيعها الارزية دقيقة الصنع . وكان من بعض رداهه عيون تصب مياهها الصافية فى صهاريج رخامية ذات أشكال منوعة انيقة . . وكان فى ردهه الخليعة عين

مصنوعة من اليصب ومزينة بأوزة عجيبة الشكل من الذهب عملت فى القسطنطينية . وكان يعلو هذه العين الدرة اليتيمة التى اتحف الناصر بها قيصر الروم .

وبنى فى الزهراء البحيرات تسبح فيها الاسمـــاك بألوانها وأنواعها وأحواض بالرخام المنقوش فى أشكال شتى بين مذهب ومذهب وبنى فى وسطها حوضاً منقوشاً بتماثيل آدمية جىء به من القسطنطينية وجعل عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالى بصورة أسد بجانبه غزال وتمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفى الجانب الآخر حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر وكلها من ذهب مرصع بالجوهر يجرى الماء من أفواهها . وقد أنفق فى بنائها ٢٠ مليونا من الدينارات . وعمل فيها عشرة آلاف رجل و١٥٠٠ دابة . وضمت الزهراء قصور الكامل والمجدد والروضة والمعشوق والمبارك والسرور والبديع .

وإذا ذكرت الزهراء ذكر جامع قرطبة وأبوابه التسعة المصفحة بالنحاس الأصفر الاباب المقصورة فانه من الذهب . وكذلك جدار المحراب وما يليه . وقد أجرى فيه الذهب . هل

الفسيفساء . وفى بيت المنبر حلية الذهب مكللة بالدر والياقوت فوق أغشية الديباج ، والمصحف موضوع على كرسى من العود المرطب بمسامير الذهب .

ومن ذا الذى ينسى قصر الحمراء الذى أقيم على منحدر جبل شعير الذى يعد من أجمل أمكنة العالم والذى يشرف على مدينة غرناطة والحقول الواسعة الخصيبة . وإذا ما نظر المرء إلى الحمراء من غرناطة رآها أبراجا مربعة ذات ألوان قرمزية يناطح أعلاها السحاب . ويحيط بأسفلها النبات الأخضر الكثيف . وإذا مر المرء تحت الأشجار التى تحف به سمع تغريد الطيور التى عليها . وخرير الماء الذى يجرى فى السواقى والقنوات القريبة منها . ثم دخل ذلك القصر الشهير رأى ما تغنى به الشعراء ولاسيما صاحب المشرقيات « فيكتور هيجو » .

« . . أيتها الحمراء . أيتها الحمراء . أيها القصر الذى زينتك الملائكة كأشاء الخيال . وجعلتك آية الانسجام . أيتها القلعة ذات الشرف المزخرفة بنقوش كالزهور والأغصان المائلة إلى الانهدام ! حينما تنعكس أشعة القمر الفضية على جدرك من خلال قناطرك العربية يسمع لك فى الليل صوت يسحر الألباب » .

وقد ذاع صيت قاعة الأسود. وغرفة الأختين . وحجرة أبناء سراج . وردهة العدل .

وفى قاعة الأسود ترى الأروقة التى تزينها الأقواس المنوعة المزخرفة بالنقوش المزهرة . والزخارف المتدلية . والتخاريم التى كانت ذهبية ملونة . وتقع عين الرائى على غابة من الأعمدة الهيف التى وضع بعضها مفرداً ، وبعضها مزدوجاً . وبعضها مجتمعاً على شكل بديع والتى تبصر من خلال التماع مياه فسقية الأسود المتدفقة .

•

ومن أجمل ما يذكر هنا صورة الاحتفال الذى أقامه الخليفة المقتدر فى قصره ، لاستقبال رسل الامبراطور قسطنطين . فقد مشى فى موكب الاستقبال يومئذ مائة وستون ألف فارس وراجل وسبعة آلاف خصى منهم البيض والسود . وسبعمائة حاجب ونحو مائة أسد . وكان ما علق من الستور فى قصر الخليفة ٣٨ ألف ستر منها اثنا عشر ألفا وخمسون من الستور المذهبة ، وبلغ ما حلوه من البسط اثنتين وعشرين ألف قطعة .

ولما نظروا إلى دار الحاجب ودار الوزير حسبوهما مجلس

الخليفة فقيل لهم أن هذه دار الوزير وتلك دار الحاجب . وكانت دهشتهم على أشدها عندما دخلوا دار الشجرة وفيها شجرة من الذهب والفضة وزنها خمسمائة ألف درهم ، وعلى كل غصن عصافير وطيور من نوع مذهبة ومفضضة تتحرك كما يحرك الريح ورق الشجر . فتصفر الطيور وتهدر . ثم أخرجوا إلى بستان فيه نخل قد لبست جميعها ساجاً منقوشا وهى مثقلة بغرائب التمر .

وكان للأمين عدة حراقات خاصة فى دجلة على صورة الأسد والفيل والعقاب وقد اتفق على عمل كل واحدة منها ثلاثة ملايين درهم . وقد امتد مرسى بغداد أميالا وحوى مئات السفن . ومن بينها السفن الحربية ومراكب اللهو والسفن الصينية والأطواف . وهى قرب جلدية تملأ بالهواء ويشد بعضها إلى بعض كهيئة السطح .

ويبدو الفن العربى فى أروع صوره من المسجد الأموى فى دمشق . وفيه الصخرة فى بيت المقدس . والجامع العظيم فى سامرا الذى بلغت نفقاته سبعمائة الف دينار .

وكان قصر عبد الرحمن الناصر فى قرطبه يضم بين جدرانه أربعمائة غرفة ومقصورة جىء برخامها من نورمنديا وقرطجنة . أما الأعمدة والأحواض المزدانة بالتماثيل المذهبة فقد استجلب

بعضها من القسطنطينية والبعض الآخر جاء به هدية من امبراطورها.

وكانت شوارع قرطبه منارة بالقناديل فى حين أن لندن لم يكن بها قنديل واحد عمومى إلى ما بعد سبعمائة سنة . وكان أمراء ليون أو نافارا أو برشلونة إذا احتاجوا جراحاً أو مهندساً ولوا وجوههم صوب قرطبه .

وقيل أن الطريقة التى شيد بها المهندسون قصر قرطبه عجيبة . وأن الأعمدة التى تستند عليها والتى أحضرت إلى قرطبه من جميع أنحاء العالم قد وضعت بطريقة هندسية عجيبة . حتى أن كل من وقف فى صحن الجامع فى أى اتجاه أمكنه أن يرى المحراب .

ووجد فى دار الخليفة المقتدر شجرة وسط حوض ماء لها ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة تعوم على كل جانب من هذا الحوض تماثيل خمسة عشر فارساً يلبسون الحرير ، ويتقلدون رماحا تتحرك على الاستمرار وكأنهم فى وطيس معركة حربية .

•

أما « سر من راى » فقد بناها المعتصم (عام ٢٢١ ﻫ) أى بعد تشييد بغداد بنحو ثلاثة أرباع القرن وقالوا أنه بناها بعد أن أكثر من اتخاذ الجند الترك فى جيشه . والف منهم فرقاً خاصة طغى

نفوذها على سائر فرق الجيش من الفرس والعرب . وضاقت بغداد بهم ، فكان أن عزم على الخروج بجنده من عاصمة الرشيد متخذاً لدولته عاصمة جديدة .

ووقع اختياره على موضع فى مدينة سامراء الحالية على الضفة اليسرى لنهر دجله ، وعلى مسافة مائة وثلاثين كيلو متراً شمالى بغداد . وقد فضلت لموقعها الحصين حيث المياه تحيط بها فى جميع أطرافها فتؤلف خطاً دفاعياً للمدينة الجديدة .

وقد اتجه المعتصم فى تشييدها إلى الإبداع فى البناء واستخدام سائر الفنون الصناعية والزخرفية فاستقدم أعظم الصناع وأصحاب المهن من جميع أنحاء بلاد العرب لينافس بها بغداد .

وأنشأ من القصور والبيوت والمساجد والبساتين ما يجل عن الوصف على طول امتداد تسعة عشر كيلو متراً .

وقد أنفق المتوكل على تعمير « سامرا » وبناء القصر نحو اثنى عشر مليوناً من الدينارات . وكتب «ياقوت» : « لم يبن أحد من الخلفاء بسر من راى من الأبنية العظيمة ما بناه المتوكل » فهى فى نظره أعظم بلاد الله .

وقال « القزوينى » : إنه لم يكن فى الأرض أحسن ولا أجمل

ولا أوسع ملكا منها . ومن قصور سامرا : قصر العـــروسى والمختار . والبرج . والغريب ، والصبيح وبستان والقلائد .

كما شيد المسجد الكبير ، وأعظم النفقة عليه ، وأمر برفع منارته لتعلو أصوات المؤذنين فيها ، ولاتزال آثار مئذنته الملوية باقية ، ويتألف ايوان القبلة فى المسجد من خمسة وعشرين رواقاً . ويبلغ عدد أعمدة المسجد أربعمائة وثمانية وثمانين عموداً .

وأنشأ المتوكل حديقة كبرى للحيوانات المتوحشة ، كانت تتوسطها البركة للحيـــوانات الجعفرية التى وصفها البحترى فى قصيدته . وإلى جوار البركة حلبتين كبيرتين للسباق والفروسية كما شيد جنوبى العاصمة قصر بلكوار الذى امتاز بعظمة مساحته وكثرة الظواهر الفنية فيه .

•

وعلى ذكر بركة الجعفرية نذكر بركة خمارويه التى وصفها المقريزى . وهى عبارة عن فسقية مملوءة بالزئبق . خمسون ذراعا طولا فى خمسين ذراعا عرضاً . وقد جعـل أركان البركة سككاً من الفضة الخالصة . وجعل من السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من الفضة . وعمل فرشاً من ادم يحشى بالريح حتى

ينتفخ فيحكم حينئذ شده ويبقى على تلك البركة وتشد زنانير الحرير التى فى حلقة الفضة بسكك الفضة ولايزال هذا الفراش يترنح بحركة الزئبق ما دام عليه . وكانت هذه البركة يرى لها فى الليالى المقمرة منظر بهيج إذا تآلف نور القمر بنور الزئبق وقد أخذ الاوربيون عن العرب فى القرن الحادى عشر والثانى عشر من الميلاد كثيراً من العناصر المعمارية والزخارف الفنية . وقد وجد فى كتدرائية لوى التى هى من أهم البنايات النصرانية باباً مستوراً بالكتابات العربية . كما قامت حصون اربونة وفق الذوق العربى .

ويبدو أثر الذوق العربى واضحاً فى الكنائس الفرنسية .

وقد أدخـــل الصليبيون الذين شاهدوا ما اشتمل عليه فن العمارة العربى من الشبابيك وشرف المآذن والافاريز ، أدخلوا إلى فرنسا الأبراج والأطناف والجواسق .

وبنى الملك ريتشارد قلب الأسد قصره المشهور فى مقاطعة نورماندى فى فرنسا على الطراز العربى .

•

ولم يكن هذا وحده الذى نقله الاوربيون . فقد حمل

الاوربيون الارقام العربية معهم حيث حلت محـــل الارقام الاوربية المعقدة . كما أفادوا من علوم الحساب والهندسة والجبر والفلك والجغرافيا . وفى اللغات الاوربية كلمات كثيرة ذات أصل عربى . وظل الفرسان الاوربيون طويلا يلبسون دروع الزرد وقمصان القطن ، وأخذوا لعبة الكرة والصولجان والمبارزة .

بطولة المراة العربية

والمرأة عندنا صفحات من الامجاد لاتنسى . .

هذه خولة بنت الازور التى قامت بعد أن أسر أخوها ضرار فى موقعة (أجنادين) فتلثمت فى زى فارس ، ومضت تحارب مع خالد بن الوليد الذى سار بانقاذه . قال خالد : أنه بينما هو فى الطريق مر به فارس معتقل رمحه لايرى منه إلا الحدق . وهو يقذف بنفسه لايلوى على ما وراءه فلما نظر إليه قال : ليت شعرى من هذا الفارس . وايم الله أنه لفارس . ثم أتبعه خالد والناس من ورائه . حتى أدرك جند الروم لحمل عليهم حتى دمر كيانهم وحطم مواكبهم . فلم يكن غير جولة جائل حتى خرج وسنانه ملطخ بالدم وقد قتل رجالا ثم عرض نفسه للموت ثانية . فاخترق صفوف القوم غير مكترث . وظنه الناس خالدا ! وقال الناس : من هذا الفارس الذى خرج كالشهاب على فرسه . وكلما تقدم منه أحد أنهل رمحه فى صدره . وهنا ناشده خالد أن يكشف أسمه فرفع لثامه . وقال : أنا خوله بنت الازور .

« وسكينه » بنت الحسين التى كانت دارها بجمع الشعراء من كل صوب وحدب . وقد أجتمع لها جرير والفرزدق وجميل وكثير ونصيب فنقدت لكل شعره وأخذت عليه مآخذه ثم اثابت كلا بألف دينار فخرجوا بخمسة ألاف دينار .

« وعزة الجمحية » من سراة بنى جمح التى يجتمع إليها الشعراء والرواة فى دارها فتسمع لهم وتوازن بينهم جميعاً .

ولما وفدت « عائشة » بنت طلحة على هشام بن عبد الملك قال لها : ما أوفدك . قالت : حبست السماء المطر ومنع السلطان الحق ، قال : إنى سأعرفه حقك . ثم بعث إلى مشايخ بنى أمية فقال: أن عائشة عندى فاسمروا لدى الليلة . فحضروا فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا افاضت فيه . وماطلع نجم ولا أغار الاسمته . .

فقال لها هشام . أما الأول فلا أنكره . وأما النجوم فمن اين لك ؟ قالت أخذتها عن خالتى عائشة .

•

و«ولاده» بنت المستكفى بالله التى كان قصرها بجمع الكتاب والشعراء والقضاة والعلماء والوزراء ، وهى القائلة :

ودع الصبر محب ودعك   ذائع من سره ما أستودعك

وقد أحبت ابن زيدون .

وهناك «مهجة» القرطبية . «ومريم» بنت يعقوب الأنصارى

وهناك الزاهدات من النساء المنقطعات إلى العبادة . الممتنعات عن طيبات الحياة . القائمات الباكيات . ومنهن : رابعة العدوية ، وعبده «بفتح العين» البصرية . وبحريه بنت عثمان . ومعاذه بنت عبد الله . وكانت رابعة تصلى الليل كله فإذا طلع الفجر هجعت فى صلاتها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر .

وهناك «سلمى» بنت حفص زوج المثنى بن حارثة التى تزوجت سعد بن أبى وقاص من بعده . ووقفت مقيمة إلى جانبه ترى ما يرى . فلما رأتهم يشدون على العرب ويقتلون منهم صاحت «وامثنياه» ، ولا مثنى للخيل بعد اليوم .

عدالة الحاكم

ومنا « الحاجب المنصور » الذى قصده الجواهرى القادم من مدينة عدن بجواهر كثيرة يقول له . إن صرة الجواهر قد اختطفتها عند الشاطىء حدأة فبعث المنصور يسأل فى محيط التجار عمن ظهرت عليه علامات الثراء لجاء وسأل الرجل عن الجهة التى أخذ الطائر طريقه نحوها ؛ فقال الرجل : إنه فر مشرقاً على سمت هذا الجبل الذى يلى القصر . فجىء بمشيخة أهل الرملة فأمرهم بالبحث عن الرجل . فقالوا ما نعلم إلا رجلا من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بيننا . وقد ابتاع اليوم دابة واكتسى هو وولده . فأمر المنصور باحضاره فاستدناه وقال له : شىء ضاع وسقط إليك ماذا فعلت به ؟ فقال : هو ذا يامولاى وضرب بيده إلى صرة فى سراويله فأخرجها بعينها فدهش التاجر وعرف أمانة العرب .

ومنا المعتصم الذى بلغه إن امرأة عربية وقعت فى يد الروم فباعوها فى سوق الرقيق . فلما خافت أن يتسراها رومى صرخت ...

« وامعتصماه » فلما بلغه الخبر قال : لبيك . لبيك . النفير النفير . وقام ولم يجلس .

وسار إلى أرض الروم فى جيش كبير . وحاصر عمورية حصاراً شديداً خمسا وخمسين ليلة . فلما فضها سأل عن العربية التى استغاثت به وقال لها : نعم . . لبيك .

ومنا الرشيد الذى دارت بينه وبين شارلمان سفارات وقد أهدى إليه « الرشيد » الساعة الدقاقة التى دخلت أول مرة أوربا ، كما أهداه أثوابا حريرية وتحفا من الذهب وقردة وفيلا ومفاتيح قبر المسيح دلالة على سماحة العرب .

ومنا « عبد الرحمن الناصر » الذى فتح سمورة . وبينما هو سائر بين أعاديدها طرق أذنه نحيب طفل يبكى . فلما اتجه ناحية الصوت إذا به وليد مايزال فى لفائفه مطروحا بين الأعشاب ، فالتقطه واحتضنه وعاد به على طرف ردائه وفوق جواده .

وإذا بأمرأة تقتحم الجمع صارخة نادبة ، تسأل عن ملك العرب فلما واجهته صرخت : أعد إلى ولدى الذى اختطفه جندك وإذا به يرفع رداءه عن الطفل فلما شاهدته استفاضت دموعها وصاحت : أيها الحاكم العربى العادل . . .

ومنا « الرشيد » الذى أرسل له « نقفور » رسالة غير كريمة فرد عليه « قد قرأت كتابك والجواب ماترى دون ما تسمع والسلام » وقاد الرشيد جيوشه ودخل أرض الروم وكتب له النصر ، وسقطت البلاد فى يده واحدة بعد أخرى . وولى جندها الادبار أمام جحافل العرب حتى بلغوا أسوار القسطنطينية وجاء نقفور يسأل الرشيد مهادنة وصلحا . وغفر الرشيد له غدره وصالحه وقبل منه الجزية ٣٠٠ ألف دينار ذهباً .

ومنا «عمر» الذى حرم على نفسه اللحم طوال سنى الرماده . وكان يحمل على ظهره جرابين من الدقيق . وكبة السمن . ويذهب مع خادمه يوزع على الناس حتى ينتهى مايحمله . ثم يعود ويحمل غيرها . وكان عنده ليلة أربعون ألفا من الرجال والنساء والصبيان. وقد حلف الا يذوق سمناً ولا لحماً حتى يخصب الناس . وبقى كل ليلة يأكل الخبز بالزيت حتى أسود لونه وقال : بئس الوالى أنا إذا أكلت طيبها ، وأكل الناس كراديسها .

انتصرنا فى كل معركة

منا خالد وسعد والمثنى الذين دكوا دولة فارس وهزوا عرش الا كاسرة ومن حولهم جنود مجهولون كانوا يرمون انفسهم على العدو فيتساقطون صرعى .

وهذا عقبة بن نافع يدفع حوافر فرسه فى مياه البحر الابيض وهو يقول: واقه لو كنت أعلم أن وراء هذا البحر بلاداً لخضته فى سبيلك .

ومنا أبو ذر الذى قال ان الفيء مال الناس لا مال الحكام وعلى الأغنياء ان يردوا فضول أموالهم على الفقراء .

ومنا قتيبه بن مسلم الذى وصل إلى الصين: وقال لامبراطورها: ان الذى أول خيله فى بلاد الزيتون واخرها فى بلادهم لا يستعصى عليه شيء .

ومنا عمر بن عبد العزيز الذى قال لواليه : ضع الجزية عمن أسلم ،

قبح الله رأيك ، فإن الله انما بعث محمداً هاديا ولم يبعثه جابيا .

ومنا ابطال اجنادين واليرموك ودمشق والقادسية والمدائن.

ومنا عبد الله بن المبارك. وسفيان بن عيينه . وسفيان الثورى وداود الطائى . والفضيل بن عياض .

ومن عندنا شع نور الثقافة فى جامعة قرطبة التى سبقت الازهر فى القاهرة والنظامية فى بغداد .

ومنا الادريسى والمسعودى والاصطخرى، والقزوينى وياقوت الحموى وابو الفداء .

ومنا ابن قتيبه الذى قال : من اراد ان يكون عالما فليطلب فنا واحداً ومن أراد أن يكون أديبا فليتسع فى العلوم .

ومنا المظهر القدسى الذى يقول : ويأبى العلم أن يضع كتفه أو يخفض جناحه أو يسفر عن وجهه . الا لمتجرد له بكليته متوفر عليه . معان له بالقريحة الثاقبة والروية الصافية . مقترنا به التأييد والتسديد قد شمر ذيله وأسهر ليله حليف النصب . ضجيع التعب . يأخذ مأخذه متدرجاً ، ويتلقاه متطرفا . لا يظلم العلم بالتعسف والاقتحام . ولا يخبط فيه خبط عشواء فى الظلام .

منا الذين فكروا فى كشف العالم الجديد . وآية ذلك قصة الفتية المغررين الذين ركبوا مركبا واتجهوا نحو الجنوب فإذا بهم يصلون إلى شاطىء أمريكا .

منا الذين عرفوا الرماية والجوكان (البولو) والصولجان . ولعب السيف والترس وسباق الخيل والصيد والرماية ولعب الكرة والشطرنج .

ومنا التجار الذين بلغوا بين القرن السابع والتاسع : الصين شرقاً براً وبحراً . وانتهوا إلى جزيرة زنجبار واقاصى شواطىء أفريقيا جنوبا وتوغلوا فى روسيا شمالا . ولم تصدهم فى اسفارهم غربا الا أمواج بحر الظلمات « الاتلانتيكى » .

ومنا أعاظم الملاحين . وهم الذين استخدموا البوصلة فى الملاحة واجدادنا أول من أحلوا الكاغد محل الرق . وصنعوا الورق من شرانق الحرير .

واستغلوا مناجم الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب . واتقنوا فن تسقية الفولاذ . واخترعوا البارود . وعرفوا تركيب النار اليونانية . فأصبحت اداة مهمة من أدوات هجومهم

واستخرجوا قوة البارود الدافعة . واستعملوه فى رمى القذائف، واستعملوا الآلات القاصفة والأسلحة النارية .

وعرف بحارتنا العرب اليابان وجزيرة مدغشقر التى كانوا يعتبرونها المكان الذى يفرخ فيه طير الرخ الخرافى .

والمسعودى «مؤرخنا» هو أول من وصف الطواحين الهوائية فى سجستان التى لا ماء فيها ، كما وصف الادريسى أنابيب المياه التى يستعملها المغاربة ، والمضخات التى تزودها بالماء فى «توليدو»

ومنا الزركلى « الفلكى » الذى قال ان الظهر فى بغداد يسبق الظهر فى « توليدو » بثلاث ساعات و ٢٦ دقيقة . والذى تمكن من قياس طول البحر الأبيض المتوسط . والمراكشى ابو الحسن الذى استطاع ان يحدد ٤٤ مكانا فى العالم .

ومنا الذين أقاموا فى مدينة « بالرموا » فى إيطاليا ثلاثمائة مدرسة .

ومنا الشريف الادريسى الذى صنع لملك نورمانديا كرة سماوية وخريطة للعالم فى شكل قرص من الفضة . وضمت هذه الخريطة صور الأقاليم الجغرافية ببلدانها وخلجانها وانهارها وجبالها .

منا نور الدين . وصلاح الدين . وخالد وطارق . وقتيبه . وابن القاسم وابو حنيفه . والشافعى والبخارى وابن حنبل والغزالى وابن رشد وابن سينا والفارابى والبيرونى والخليل والجاحظ وابو حيان وابو تمام والبحترى والمعرى .

ومن مراكزنا العلمية : بيت الحكمة والمدرسة النظامية وجامعة قرطبة . والأزهر .

•

« نحن العرب » : كنا قلة فى العدد فى كل معركة دخلناها ، ومع ذلك كنا ننتصر . انتصرنا فى بدر واليرموك واجنادين والقادسية ونهاوند والمدائن وحطين وعين جالوت .

« نحن العرب » طبعنا المجتمع الانسانى على الأخلاق والايثار . يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويؤثره عليها ولو كان به خصاصة . والقوى فينا ضعيف حتى نأخذ الحق منه . والضعيف عندنا قوى حتى نأخذ الحق له .

« نحن العرب » : علمنا شرعة الحرب الرحمة . وشرعة السلم العدل . وجعلنا الحضارة روحا ومادة . كل أرض فيها لسان عربى هى أرضنا .

«نحن العرب» آمنا بأن أكرمنا عندالله اتقانا . وليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أبيض . ولا لابيض على أحمر : فضل إلى بالتقوى .

نحن العرب:الذين حمل إلى حاكم من حكامنا نحوا من خمسمائة ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف دينار من الذهب . فحمل الناس كثرة المحمول على أن يحصوه بالوزن لا بالعدد فيقولوا انه بلغ ستة أو سبعة قناطير من الذهب .

نحن العرب الذين قال عنا « دولامر » أننا انجزنا فى ثلاثة قرون من الاكتشافات ما يزيد على ما حققه الاغريق فى عشرة قرون، نحن الذين قال أحدنا «الفرج بن فضاله» وقد أقبل المنصور يوما وهو جالس عند باب الذهب . وقد قام الناس له ولم يقم فضاله . عندما سأله المنصور لماذا لم يقم له قال: خفت ان يسألى الله تعالى لم فعلت . ويسالك عنه لم رضيت .

منا أبو بكر الخليفة الأول الذى لم تغير الخلافة منه شيئاً . داره وحياته ولم يكن له سلطان مطلق ولا طبقة معينة .

انه ابو بكر الذى قال : ان لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل .

٢ – قوة شخصيتنا

عرفت « شخصيتنا العربيـة » فى تاريخها الطويل بالبطولة وانتصار الذات والوفاء بالعهد . لم تكن البطولة فى تاريخنا مظهرا أو عملا مسرحيا يراد به الشهرة أو استعراض العضلات . إنما قام على أساس أنه رسالة حقة خالصة مجردة من الهوى أو المطامع .

ولعل هذا هو أبرز ملامح شخصيتنا العربية فى التاريخ ، أنه يمثل صورة من العمل الموحد الجماعى الضخم السريع ، لأنه مندفعة إلى الامام ، لا تؤمن بالمظاهر ولا تحرص أن تقف أمامه الاضواء .

وعندما خرجنا إلى أطراف الأرض بعثنا فى كل مكان روحا جديدة ، كنا مثلا أعلى فى المعاملة . أحبنا كل من عرفنا ، لاننا لم نكن غزاة أو طامعين . ولكنا كنا روحا جديدا يمنح النور والضياء .

أما فى وطننا الكبير فقد رفضنا كل عدوان . وقاومنا كل دخيل ، لم نستسلم أبداً . أذبنا الامم والمذاهب فى كياننا .

وكان دورنا فى الحضارة إيجابياً قوياً . أخذنا الثقافة والعلوم فنقلناها وأضفنا اليها . وأنشأنا ثقافات جديدة وفنونا من العلم والحكمة والفلسفة .

وعندما هوجمنا من الفرنجة دافعنا بعزم وقوة وسحقنا العدو فلما وقع ملوكهم فى قبضتنا عفونا عنهم . وعاملناهم بسماحة رائعة هزت أوربا فسجلت رغم التعصب رجولتنا وسماحتنا . استبسلنا فى حطين وفى عين جالوت وفى دمياط . وأسرنا لويس فى المنصورة وعفونا عنه . وأسرنا قلب الأسد فى فلسطين وعاملنا بسماحتنا .

كنا أقوياء فى الدفاع والعفو على السواء . علمنا الدنيا الوفاء والبسالة معاً . وقد عرفنا بالمناعة فى كل منطقة من مناطق أرضنا العربية . ظهرت مناعتنا فى مقاومة الهكسوس . ومقاومة الصليبيين فى سبع حملات صليبية استمرت أكثر من مائتى عام . لم تستطع فى خلال قرنين أن تقهر روحنا أو تخضعها ، بل على العكس من ذلك ضعفوا هم لروحنا ونقلوا من مذاهبنا وتقاليدنا .

وعلمنا الدنيا المدنية وسبقنا الغرب اليها إذ بينما كانت شعوب الفرنجة والسكسون والجرمان تعيش فى الأكواخ ويعتلى ملوكهم وأشرافهم قمم الصخور فى القلاع المظلمة ، كنا فى الأندلس نشيد

القصور الفوراء. ونرد الحامات ونفتح أبواب جامعاتنا فى قرطبة للعلماء والمثقفين .

وفى أوربا . بعد جلائنا عن الأندلس وجنوب فرنسا وإيطاليا استمر نفوذ حضارتنا وثقافتنا عصوراً طويلة يطبع حضارة هذه الأمم بطابعه الواضح .

ونحن مازلنا فى برقة ونجد وبحر العرب والفرات ولبنان والأطلس ومصر أمة ذات مزاج مشترك لها عقيدتها ولسانها وعارضتها القوية . مامتنا وإن عشينا النعاس لحظة ، ثم أفقنا لنخطو خطوات واسعة ونسترد مكاننا ..

وعلى شواطئنا تحطمت كل موجة ، تحطمت موجة الصليبيين بعد معارك ودماء . وقاومنا الغزو التترى بقوة . هذا الغزو الذى يزحف من قلب آسيا حتى وصل بغداد . ثم اتجه نحو الشام وزحف إلى فلسطين فى عمليات تخريب ضخمة . فلما وصل رسل هولاكو إلى مصر يحملون رسالته إلى مصر بالتسليم شنق المظفر قطز الرسل وعلق رؤوسهم على باب زويلة واندفع بقواتنا يرد المغيرين عن أسوار غزة .

لقد كنا رمزاً على العظمة والقوة سواء فى صفحات أمجادنا

أو صفحات هزائمنا . فعند ما كنا نفتح البلدان وتذيع النور والحضارة فى العالم كله كنا غاية فى التسامح والحفاظ على الكرامة والرغبة فى السلام والاخاء .

وفى مواقف هزائمنا عندما أخرجنا الفرنجة من الأندلس كنا رمزا خالصاً على الاستشهاد والمقاومة الخالصة الجريئة التى لاتقبل الضيم ولا تستسلم للتعذيب . ولكنها تظل إلى اللحظة الأخيرة غاية فى القوة والايمان .

وصهرت المحن العرب فما من أزمة من الأزمات الضخمة التى كانت تلم بوطنهم الأكبر إلا واجهوها بشىء كبير من العـزيمة والايمان والثبات . وبرصيد ضخم من المقاومة المستمرة التى يبذل فيها أغلى ما يملك وهو الروح والدم .

ويرجع هذا البذل إلى أن الروح العربية هى الايمان بالفداء والبذل والحرص على الموت فى سبيل غاية كبرى : ولقد كان هذا الحرص سبباً مباشرا للانتصارات التى حققناها فى جميع المعارك مع خصومنا بالرغم من أننا كنا فى أغلب هذه المواقع أقل عدداً ولكن الايمان بالفداء والاندفاع إلى العمل ونحن موقنون بأننا نموت فى سبيل شرف عقيدة أو فكرة صادقة كان دائما يؤدى إلى النصر .

فى مرحلة المقاومة

قاومنا الصليبيين

عاشت الشخصية العربيـة مرحلتين : مرحلة القوة والقيادة والفتح . مرحلة المقاومة والنضال ضد الموجات الغاصبة المتعددة التى واجهتها أمداً طويلا .

ولعل قوة هذه الشخصية وتألقها وانصقال معدنها يظهر فى مرحلة المقاومة بأوضح مما يظهر فى مرحلة القيادة .

ذلك أن الامم فى أوج قوتها ونصرها واندفاعها ، إنما تكون محاطة بهالات من البريق تضفيها الاحداث والمظاهرات . ولكن حقيقة جوهر الشخصية إنما تظهر فى فترات المحن . عندما تتكشف أمام الاحداث ، وتزوعنها تلك الاثواب . وتتعرى عن واقعها الخفى ، وهى فى هذه المرحلة إما أن تنهار أمام الغاصب وتنسحق إزاء مؤامراته وتستسلم وتركن إلى الذلة . وتتبدل ملامحها فتكون صورة مكررة تقليدية من القوى القاهر ، وتمضى معه مشدودة عليه قد مسخت وضاع واقعها ولم يعد أمرها إلا ذكرى تاريخية . وإما أن تواجه الموقف فى قوة ، فلا تنهار ، وتتكشف

عن قدراتها الكامنة فى الصبر والمقاومة والمحافظة على كيانها وذلك ماحدث بالنسبة للشخصية العربية .

فمنذ عام ١٠٧٢ حتى اليوم ، وفى خلال ثمانمائة وثمانين عاما لم يتوقف هذا الغزو . ولم تتوقف الشخصية العربية عن المقاومة والنضال .

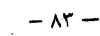
بدأ الغزو الصليبى للارض العربية فى حملات متتابعة لم تتوقف . وبعد قرن ونصف قرن بدأ الغزو التترى الأرض العربية . ولم تلبث جائحة ثالثة أن هاجمت الارض العربية . وهى الحملة العثمانية (١٥٠٣ م) وجاءت الجائحة الرابعة عام ١٧٩٣ فى صورة الحملة الفرنسية التى كانت مقدمة للغزو الاستعمارى الحديث الذى استمر حتى اليوم فى صوره المتعددة : الفرنسية والانجليزية والإيطالية والاسبانية .

كانت هذه الحملات ترد أرضنا لتحطم الشخصية العربية مواجهة إيانا بالغدر والتآمر . فلا تلبث الشخصية العربية القوية الصلبة أن تواجهها بالقوة والصبر والتجمع . وقد يطول بها المقام . ولكن المقاومة لاتلبث أن تدمر قواعدها وتحطم مراكزها فلا تجد سبيلها إلى البقاء .

وتوالت الحملات الصليبية فى خلال قرن ونصف قرن على الارض العربية فى عنف . واتصال فى تسع حملات صليبية، كان خلالها أصحاب الاطماع فى التملك والسلطان يسوقون الجحافل التى لم تكن تعرف غاية واضحة إلى أرض العرب ، حيث وقف منهم ٤٠ ألفاً على أبواب بيت المقدس الذى لم تكن تزيد حاميته على ألف رجل . وطال وقوفهم شهراً ثم اندفعوا إلى المدينة يعملون السيف فى رجالها ونسائها وأطفالها حتى شوهدت أكوام الرءوس والايدى والارجل ، فى شوارع المدينة ومربعاتها . وكانت الارجل تغوص فى برك من الدماء. وقام منذ ذلك الوقت احتـــلال صليبى فى أرض العرب ممثل فى امارتين ومملكة لاتينية .

وعبر البحر إلى ساحلها العرب ألوف وألوف من العرب . جاءوا ليحطموا الشخصية العربية فى مكانها وأرضها ، ولكن هل استطاعت هذه القوات التى كان يقودها ريتشارد قلب الاسد ولويس التاسع وغيرهما أن تحقق غرضها ...

إن الذى حدث هو أن « الشخصية العربية » تجمعت فى شخص نور الدين ثم فى قيادة صلاح الدين . وواجهت هذا الخطر مواجهة رائعة حاسمة ، لقد واجهت الشخصية العربية فى



يقظة مستمرة هذه الحملات وسحقتها واحدة بعد أخرى ، فى فلسطين ودمياط وعين جالوت والمنصورة .

كانت هذه الحملات تياراً جامحاً مفعما بالحقد والغدر أريد به تحطيم هذه القوة العملاقة التى تسيطر على هذه المنطقة من الخليج إلى المحيط .

لقد كان اللقاء مريراً صمدت له الشخصية العربية وعرفت قوتها واصالتها وهى تواجه الخطر الجامح الضخم المستمر الذى كان متصلا لا يتوقف ويهاجم فى غير مكان . ثم يستقر فى أمارات على شاطىء فلسطين فى مواجهة البحر ليمتد شمالا إلى سوريا وجنوبا إلى مصر .

لقد جمع صلاح الدين الأمة العربية لمواجهة الخطر فى وحدة . ثم دفع جيوشه لتقض مضاجع الفرنجة الغاصبين . فاحتل طبرية بعد حصار دام ستة أيام وعلى مقربة منها جرت معركة « حطين » حيث هاجم صلاح الدين فى جيشه العربى عشرين ألفاً منهم فانتصر عليهم . وقتل ارناط الذى نقض العهد بين العرب والصليبيين مرات ومرات . واوقع بقوافل العرب . وجهز أسطولا أخذ يعيث بشواطىء الحجاز فساداً وينزل الأذى

بمواكب الحجاج . وكان صلاح الدين قد أقسم ليقتله بيده .

وسجد صلاح الدين لله شكراً فلما رفع رأسه وجد رءوس الفرنجة وقوفاً بين يديه فى الاغلال جودفرى ملك القدس . وصاحب حصن جبيل وابن ملك طبرية .

وهذه سيدة مسيحية تبعث له برسالة : إنها زوج صاحب طبرية تطلب الأمان من السلطان . وأمنها السلطان وأعادها معززة مكرمة .

صلاح الدين وحطين

جاءت « حطين » بعد احتلال الفرنجة للساحل العربى بتسعة وثمانين عاماً كرد حاسم على العدوان . وإعلان واضح على اليقظة . بقيادة صلاح الدين الجندى الذى لا نظير له فى ميادين القتال . والسياسى الماكر الذى لا تغلبه مناورات الفرنجة . والرحيم العادل والخصم الشريف . الذى عرف الفرنجة هذا منه وتأكدوا بأنه لايغدر ولايخون .

وحمل « صلاح الدين » لواء الوحدة الذى مهدله محمود نور الدين . فدانت له المنطقة كلها بالقيادة . رأت فيه أملها الذى طالما ترقبته ، خلال سنوات طوال كانت تنتظر فيه « منقذ العرب » من برقه وماحولها من ناحية المغرب . ومن اليمن وبلاد النوبة فى الجنوب . ومن ديار بكر والجزيرة وارمينيه من ناحية الشمال والمشرق ، تنادت هذه الديار كلها إلى « صلاح الدين » بإيمان صادق بالوحدة لمقاومة العدو الجاثم على قلب فلسطين . جمعتها الكلمة الخالدة . . . « والقومية العربية » .

وتعددت أحداث الفرنجة فى نقض الهدنة ومطاردة العرب والايقاع بهم ، والغدر والدس . . ولكن صلاح الدين كان يقول بإسم الشخصية العربية التى يمثلها « . . إنى لاستحى من الله أن يرانى ناقضا للعهد وإنى لاستحى من نفسى أن أكون كاذب الوعد . وما النصر إلا من عند الله » .

ولما أنتهت الهدنة كانت المنطقة كلها تتأهب لموقعة فاصلة . لقد حان الوقت لانقاذ شرف العرب أن عرض الفرنجة هذا الشرف للهوان مرات ومرات فى هجومهم الغادر على حدودنا . وما كان يحول بيننا وبين الثأر لكرامتنا إلا فترة حددناها ومهلة قدرناها .

ونادى صلاح الدين : يا خيل الله أركبى . واندفعت كتائب القومية العربية إلى حطين : كان جيش سوريا وجيش مصر وقد امتزجا بقيادة صلاح الدين يندفعان قوة واحدة نحو الثأر .

كانت الشخصية العربية تعرف واجبها . أنها تنتظر طويلا وتعرف الاناة ولها القدرة الكاملة على ضبط أعصابها ، حتى لا تخفر العهود وتدع العدو يقيم الحجة على نفسه بغدره ، ثم إذا

بها تضربه ضربة مذهلة ، وتطعنه طعنة تحطم كيانه وتزلزل أقدامه . . .

وتساقطت الحصون فى طريق صلاح الدين تباعا . وانفرط عقدها ، ووقف السلطان تجاه البحر ومعه القاضى الفاضل والقاضى ابن شداد ، على الساحل الذى كان فى يد الهزيمة ثم خلص للعرب وكان البحر هائجا وتكلم السلطان قال : أيها القاضيان : أما أحكى لكما شيئا فى نفسى . متى يسر الله فتح بقية الساحل فأنى سأوصى واودع . وأركب البحر إلى جزائره . أتعقب الهزيمة فيها حتى لا أبقى حول فلسطين عدوا .

ومضت الشخصية العربية تسترد حقها . وتأخذ بثأرها ، إلى «عسقلان» أربعة عشر يوما حاصرتها القوة العربية ثم أتم الله لهم النصر فاستسلمت .

واتجهت الكتيبة إلى القدس . ذكريات كريمة تطوف بقلب « صلاح الدين » وروحه . هذه وقفة على أبواب المدينة المقدسة وقفها من قبله عمر بن الخطاب ، فاتح القدس الأول .

وحاصرت قوات العرب ربى القدس ، ووقفت متحفزة . ونادى صلاح الدين « يا أهل القدس من الفرنجة . أعلموا أننا

نحن العرب نقدس هذا البلد كما تقدسونه . ولسنا نرغب فى أن نتعرض له ولا لأهله بسوء . فاذا شئتم سالتم فسلمتم . والا فيرغمى أن أحاربكم فى هذه الأرض المقدسة .

وكبر على الفرنجة التسليم . وتحرك صلاح الدين نحوهم بجيشه وطاف حول أسوارهم خمسة أيام كاملة . وقرر أن يقتحم المدينة من ثغرة أختارها ، وعرف الفرنجة أنه لا سبيل للمقاومة ، لقد تأكدوا الهلاك . وسرعان ما طلبوا الصلح . وهاهو « بليان » صاحب الرملة الذى أطلقه السلطان يوم حطين بعد أن تعهد بأن لا يحارب العرب ، يخفر عهـــده ويحارب ، ثم يتقدم ليطلب الصلح .

وقال « ايليان » : يا أيها السلطان : انكم قوم تحبون الموت ولذلك فقد وهبت لكم الحياة . فاذا كان لابد من الموت فسنقتل أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا ومتاعنا .

وقال صلاح الدين : انى لا أحب الظلم ولا أرضاه . أنى اسمح لكم بالرحيل عن المدينة فى مدة لا تزيد عن أربعين يوما . على أن يدفع الرجل عن نفسه عشرة دنانير . وإلا فهو أسير .

ورفض صلاح الدين أن يشهد القوم وهم يغادورن البلاد

حتى لا يؤذى كرامتهم أو يجرح عزتهم . ونادى مناديه فى الفرنجة هل من فقير فنأويه ، هل من عاجز فنعفيه من فدية لا يستطيع دفعها . ويعجزه الحصول عليها ..

وأصدر عفوه عن سبعة آلاف من العجزة والمساكين ثم أعفى عشرة آلاف من الفقراء . . وتقدم فوج كبير من الفرنجة منهم من يحمل أبويه الضعيفين ، ومنهم من يحمل أخوته المرضى وبكى السلطان وأمر بأن ترد لهم الفدية ، وأن يؤتى لهم بالدواب ليركبوا .

وخرج البطريق بمال كثير . لم ينفق منه شيئاً فى افتداء يتيم أو مسكين أو فقير . وأشار القادة على صلاح الدين أن يأخذ ماله للجيش . ولكن السلطان رفض وسمح له بالخروج !

وقال : لا . ما كان لنا من حق فى ماله إلا الدنانير العشرة . وغيرى من يغنم المال عن طريق الغدر .. دعوه يخرج !

ومضت الأيام الأربعون . ودخل جيش العرب القدس .

ووقف صلاح الدين عند الصخرة الشريفة . وقال : ألا انبئكم بهذا النصر الذى احرزناه : إنها مصر وسورية حين اندمجتا فى

فى جيش واحد . وحققت هذا الحلم الذى كان بعيدا : تحرير فلسطين وانقاذ القدس .

ولم يبق فى حوزة الصليبيين إلا انطاكية وطرابلس وصور وبعض المدن الصغيرة والقلاع ..

ولكن هـــل توقف الفرنجة أمام يقظة الشخصية العربية وانتصارها ؟

لقد استشاطوا غضباً . وتجمعوا بعد أن تركوا خلافاتهم القديمة . فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا . وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا . وفيليب أوغسطس ملك فرنسا . واندفعوا على رأس حملة ضخمة زاحفة إلى أرض العـــرب لسحق الشخصية العربية العملاقة .

أما فريدريك فغرق وهو يعبر نهراً فى « كيليكيه » فارتد معظم أفراد جيشه . أما رتشرد فاحتل جزيرة قبرص لتكون ملجأ للصليبيين المهزمين .

ثم اتجهت القوات الزاحفة المجمعة من شذاذ الآفاق وشراذم المغامرين إلى « عكا » . ظناً منهم أنها الثغرة التى تصل بينهم وبين الأرض التى فقدوها . ووصلت قوات بقيادة صلاح الدين لانقاذ

المدينة . ونشب القتال براً وبحراً . ودام حصار العرب للمدينة عامين كاملين . . مما اضطرت بعده الحامية الافرنجية إلى التسليم للعرب .

ولمس ريتشارد عظمة صلاح الدين عن قرب . ورأى فيه صورة الشخصية العربية بقوتها وإيمانها ورحمتها . وأدرك أن هزيمة غير ممكنة بعد أن وحد الأمة العربية كلها تحت لوائه . واختفى ذلك الصنف من الخونة التي يعتمد عليه الدخيل .

وقد وصف العماد الاصفهاني حملة الفرنجة على العرب بقوله :

«خرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت . ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم من البرناشبة الصوت . شقراً كأنما لفحت النار وجوههم . وهم فيها كالجون . زرقا كأنما عيونهم من حديد . قد نزع الله الرقة من قلوبهم ونقلها إلى غروبهم . واشتعلت نار جهلهم . تستعيذ المروءة من مروءتهم . ويدعى للنار بالعون على الاطلاع على أفئدتهم . فظاظ غلاظ جهنميون ، كلامهم شرر . وأنفاسهم شـــواظ خلق الله الخلق من طين ، وخلقهم من حجارة . . »

وقد عاش صلاح الدين حياة خصبة عريضة . تمثلت فيها

الشخصية العربية فى أروع صورها . بهر بتصرفاته وخلقه وشهامته الفرنجه ، وصنع مثلا حيه ، عاشت مع التاريخ ، فقد علم الغرب معانى الفروسية العربية فى شجاعتها وحماستها .

وعاش حياته فى نضال لم يتوقف . واجه الحملة البرية التى أرسلها الصليبيون أول الأمر إلى دمياط . واستقرت خمسين يوما . ثم جمع الأمة العربية فى وحدة وعقد بينها اتفاقا .

وكان يقول لحكام الموصل وسوريا : « كونوا يداً واحدة ، وأعضاء متساندة وقلوبا يجمعها ود . وسيوفاً يضمها غمد . فالعداوة محدقة بكم من كل مكان ...

نحن نقاتل العدوين الباطن والظاهر : ونصابر الضدين المنافق والمحتل . حتى يأتى الله بالنصر .. »

ورسم صلاح الدين اهدافاً واضحة لتخليص الوطن العربى من الصليبيين وقد بايعته الأمة مبايعة كاملة وآمنت به . وامتلأت قلوبها ثقة بأنها حين يتجمع وراءه إنما تكتب صفحة النصر .

وقد تحقق النصر فعلا ...

« ... لقد كان صلاح الدين صورة صحيحة للعربى المسلم ...

تقياً محافظاً على الصلوات . وقد برهن على كرمه وسخائه وسعة حلمه ورحمته بهباته لريتشارد ، وحسن معاملته للأسرى . ولصلاح الدين صفات العرب فى الجلد والصبر ، وإلى هذه الصفات شجاعة فى حماسة . فقد اجتمعت له كل الفضائل . وداعة أخلاق . ورأفة بالصغير . وأمانة لا يتسرب إليها الوهن . وشفقة لا تتبدل . وإكرام للضعفاء والنساء . وهو يعتبر فى التاريخ الرجل الذى أوقف زحف الغرب على الشرق . وأرجع الموجة إلى الغرب.

وهو رجل قد وحد الشرق المبعثر وهو رجل مقدس حقق فى نفسه أعلى الفضائل والمثل العليا الاسلامية » .

هكذا تصور دائرة المعارف البريطانية الشخصية العربية ممثلة فى صلاح الدين . وقال صاحب النوادر السلطانية : أن صلاح الدين كان من عظماء الشجعان ، قوى النفس شديد البأس . عظيم الثبات لا يهوله أمر . وكان يعطى إذنا لجنوده بزيارة أهلهم ، فى أول الشتاء ويبقى فى شرذمة يسيرة فى مقابلة عددهم الكثير . وكان لابد له أن يطوف حول العدو مرة أو مرتين كل يوم ، وما استكثر العدو ولا استعظم أمرهم قط . ولقد انهزم المسلمون فى المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب . ورفع العلم ، وهو

رضى الله عنه ثابت القدم فى نفر يسير حتى انحاز إلى الجبل .
يجمع الناس ويردهم ولم يزل حتى نصرهم الله على العدو فى ذلك
اليوم .. »

وقبل ذلك كان يجلس للعدل كل يوم اثنين وخميس ، فى مجلس
عام يحضره الفقهاء والقضاه والعلماء . ويفتح الباب للمتحاكين
حتى يصل إليه كل أحد . من عجوز هرمه وشاب صغير وشيخ
كبير . وما استغاث به أحد إلا وقف له وازال ظلمه . وانتصف
للمظلوم وإن كان المشكو منه أقرب الناس إليه .

هذه ملامح « صلاح الدين » وهى على التحقيق ملامح من
الشخصية العربية .

واسرنا لويس

انها ملحمة طويلة من ملاحم الصراع والكفاح والدفاع عن الارض تتابعت فيها أفواج الباغين الطامعين فوجا وراء فوج. ولكن الشخصية العربية اثبتت أن روح الفروسية والكفاح ورد العدوان ومقاومة الطغاه. أصيلة فيها فواجهت هذه الافواج بأفواج وقاومت هذه القوى بقوى. كانت الصفوف تتقدم فتنهار. لتتقدم صفوف أخرى. صفوف تدافع عن الشرف وتذود عن الذمار. وترد عادية المغتصب. صفوف قاومت ولم تستسلم. وقدمت الضحايا والشهداء. ولم تتوقف عن البذل والتضحية.

خرجت « الشخصية العربية » رجالا ونساء. كباراً وصغاراً تحارب المندفعين على أرضها فى الصحراوات والمواني والسواحل والميادين ... ما أن يدوى النفير على شواطىء مصر أو فلسطين. وما أن تتسامع بأن حملة وصلت حتى يحمل العرب السلاح. صفوفا وراء صفوف. تقاتل وتستشهد.

وانهارت قوة الفرنجة تحت ضربات صلاح الدين بعد ثمانين

عاما . وارتد الفرنجة إلى قلاعهم على الساحل . ولكن هل اوقفت أوربا عدوانها . وهل توقفت حملاتها ؟ .

انها رأت أن مصر هى القوة التى تقف فى وجهها . لذلك اتجهت الموجه إلى مصر فى حملتين صليبيتين كبيرتين .

نزلت أولاهما أيام الملك الكامل ولم تلبث ان هزمت واضطرت إلى ان تعود بعد هزيمتها حيث قطع العرب جسر النيل فطغى الماء مساحة كبيرة من الأرض على جانبى النيل أذهبت الأمل فى زحفهم نحو القاهرة فاحرقوا خيامهم وحطموا مجانيقهم وانسحبوا فى جنح الظلام .

ولم يمض أكثر من ثلثى قرن حتى حشد لويس التاسع حملته الكبرى التى قصدت مصر . ونزلت ظاهر دمياط واتجهت إلى المنصورة . فلقيت الهزيمة الساحقة . واسر لويس فى بيت لقمان .

كان الفرنجة يتقدمون نحو شاطئنا العربى الطويل الممتد من الاسكندرونة إلى الدار البيضاء فى خلال ثمانية قرون يحملون أطماعا مادية مريرة وتنافسا على الملك مرة وعلى مناطق النفوذ مرة وعلى البترول مرات ... كانوا يتقدمون وهم على يقين من

أن الشخصية العربية قد غفت وأنها لن تقاوم ، فإذا بها تواجه من الجحافل المؤمنة بأرضها ووطنها وحقها فى الحياة . تواجه بأعنف مقاومة .

وصدق « أدوار جيبون » مؤرخ الدولة الرومانية حين قال « لقد قامت الحروب الصليبية على مبدأ التعصب الوحشى، وكانت أهم النتائج مشابهه للسبب . كان كل حاج يطمع فى الرجوع بأسلابه المقدسة من آثار اليونان وفلسطين . وانبثق من النبع المخرب للحرب المقدسة نظام محكمة التحقيق وجماعات الرهبنة المتسولة ثم مفسدة الرخص الدينية ثم تقدم الشعائر الوثنية . وفتك روح اللاتين الناهض بحيوية عقلهم ودينهم ... »

وعندما احتل الصليبيون « دمياط » . أمضوا ستة أشهر فى اللهو والخلاعة أتاحت للعرب فى مصر تعبئة قواتهم .. وتقدم الصليبيون على الضفة الشرقية ، فاستولوا على مدينة فارسكور ، ثم واصلوا التقدم حتى اقتربوا من المنصورة . هنا لك ارتطموا بأول مانع مائى وهو بحر اشموم .. حيث كانت القوات العربية ترابط على ضفته المقابلة لا يفصلها عن العدو إلا مياهه الزرقاء .

وقد تأهبت بحفر الخنادق وإقامة المتاريس والمجانيق وقاذفات